الباب الرابع

الصفات المستحبة من مكارم الأخلاق

الفصل الأول: الإحسان

الفصل الثانى: الإخلاص

الفصل الثالث: الاستقامة

الفصل الرابع: الأسوة الحسنة

الفصل الخامس: إفشاء السلام

الفصل السادس: الأمانة

الفصل السابع: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الفصل الثامن: الإنفاق والصدقة فى سبيل الله

الفصل التاسع: بر الوالدين

الفصل العاشر: تذكر الموت

الفصل الحادى عشر: التواضع

الفصل الثانى عشر: التوبة

الفصل الثالث عشر: التوكل على الله

الفصل الرابع عشر: **حق الجار**
الفصل الخامس عشر: **فى الحكمة**
الفصل السادس عشر: **الحياء**
الفصل السابع عشر: **صلة الرحم**
الفصل الثامن عشر: **العدل**
الفصل التاسع عشر: **العفو والصفح**
الفصل العشرون: **القناعة**
الفصل الحادى والعشرون: **الكرم**

***

الفصل الأول

الإحسان

١ - معنى الإحسان:

الإحسان ينتظم معنيين:

(أ) الاتقان والإجادة. يقال: أحسن فلان عمله إذا أتقنه وأجاده ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (١).

(ب) الإنعام على الغير. يقال: أحسن إلى فلان، إذا تفضل عليه وأبره، ومنه - قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

الإحسان لغة: ضد الإساءة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ (٢) أى يدفعون بالكلام الحسن ما ورد عليهم من مساوئ غيرهم.

وفى الاصطلاح:

قال المناوى: الإحسان إسلام ظاهر، بقيمة إيمان باطن، يكمله إحسان شهودى.

وقال الراغب: الإحسان فعل ما ينبغى فعله من المعروف وهو قسمان:

أحدهما: الإنعام على الغير.

والثانى: الإحسان فى فعله، وذلك إذا علم محمودًا، وعمل حسنًا، ومنه قول على ﷺ الناس أبناء ما يحسنون، أى منسوبون إلى ما يعلمون ويعملون.

٢ - حقيقة الإحسان:

فسر النبى ﷺ الإحسان حين سأله جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ (٣). ولذلك عظم الله ثواب أهل الإحسان فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (٤) وقال عز وجل:

(١) سورة السجدة الآية ٧.
(٢) سورة الرعد الآية ٢٢.
(٣) سورة النحل الآية ٩٠.
(٤) سورة البقرة الآية ١٩٥.

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [1] أى ما جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن الله إليه فى الآخرة.

٣ - دعوة الإسلام إلى الإحسان:

والإسلام دعا إلى الإحسان، وندب إليه. لأن ممارسته هى أنجح الوسائل لتثبيت الفضائل، وتعميق جذورها فى النفس، وليرتفع المستوى الإنسانى بصرف القوى فى ترقية الحياة، وإفاضة البر إلى من هم فى حاجة إلى البر والرحمة.

فالمحسنون فى نظر الإسلام أحباب الله، يكلؤهم بعنايته، ورحمته لا تفارقهم طرفة عين.

﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2].

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [3].

ومنفعة الإحسان وفائدته تعود على المحسن نفسه، والله سبحانه يبادل بالإحسان إحسانا:

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [4].

والإحسان الأول فى هذه الآية هو - كما قال ابن عباس والمفسرون - قول لا إله إلا الله. والإحسان الثانى - فى الآية - هو الجنة.

والمعنى: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة.

٤ - شمولية الإحسان واتساع دائرته:

من تأمل الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة فى الإحسان يتضح له بجلاء أن الإحسان يشكل جوهر العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وأن دائرة هذا الإحسان تتسع لتشمل النفس والأسرة والأقارب ثم المجتمع والإنسانية عامة.

فالدائرة الأولى: الإحسان إلى النفس وهى تعنى إخلاص العبادة وكمال الطاعة، قال تعالى:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [5].

وأما الدائرة الثانية: فتشمل الوالدين. قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [6].

(١) سورة الرحمن الآية ٦٠.
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥.
(٣) سورة الأعراف الآية ٥٦.
(٤) سورة الرحمن الآية ٦٠.
(٥) سورة الإسراء الآية ٧.
(٦) سورة الإسراء الآية ٢٣.

وأما الدائرة الثالثة: وهى دائرة الأقارب فإنها تشمل قرابة النسب وقرابة الجوار، وقد ورد الحث عليها فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (١).

وفى الحديث الشريف ورد الحث على الإحسان إلى الجار فى قوله صلى الله عليه وسلم: وأحسن جوار من جاورك تكن مسلمًا .. الحديث (رواه الترمذى) .

أما الدائرة الرابعة: وهى أوسع من سابقتها فإنها تضم المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان. والإحسان هنا ينصب على الجانب الضعيف فى المجتمع كاليتامى والمساكين وأبناء السبيل ومن على شاكلتهم(٢). يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (٣).

وذى القربى: هم الأقرباء .. والجار ذى القربى: الجار المجاور أو القريب. والجار الجنب: الجار البعيد سكنًا أو نسبًا. والصاحب بالجنب: الزوجة والصديق. والرفيق فى العمل، وفى السفر. وابن السبيل: المسافر المنقطع عن أهله. وما ملكت أيمانكم: الإماء والعبيد والخدم.

فهؤلاء يجب أن يعمهم الإحسان ليسود الجميع المحبة والمودة ويشملهم الأمن والسلام.

أما الدائرة الخامسة: وهى الأوسع والأرحب فى المعاملات الإنسانية فتشمل الإحسان إلى المخالفين فى العقيدة بالصفح عنهم. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤).

وهكذا إذا تتبعنا نواحى الإحسان وضروبه نجد معناه واسعًا، وأن الله يريد للناس أن يعيشوا فى ظله، ويسعدوا بالحياة، ويصلوا إلى المثل الأعلى وهذا هو الدين الحق الذى يتقبله الله ولا يتقبل غيره.

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٣.

(٢) بتصريف من فلسفة التربية / ماجد الكيلانى.

(٣) سورة النساء الآية ٣٦.

(٤) سورة المائدة الآية ١٣.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [1].

٥ - الإحسان من أهم وسائل نهضة المسلمين:

إن الإحسان يقتضى من المسلم إتقان العمل المنوط به، إتقان من يعلم علم اليقين أن الله – عز وجل – ناظر إليه ومطلع على عمله، وبهذا العمل تنهض الأمم وترقى المجتمعات [2].

***

(١) سورة النساء الآية ١٢٥.

(٢) بتصرف من موسوعة نضرة النعيم نقلا عن فلسفة التربية الإسلامية/ ماجد الكيلانى.

الفصل الثانى

الإخـــــلاص

١- معنى الإخلاص:

الإخلاص: أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده، وجه الله، وابتغاء مرضاته من غير نظر إلى مغنم، أو جاه، أولقب، أو مظهر، أو تقدم، أو تأخر، ليرتفع المرء عن نقائص الأعمال، ورذائل الأخلاق، ويتصل مباشرة بالله.

وفى التنزيل: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[1]. قرئ بالفتح والكسر.

فالمخلَصون: المختارون، والمخلِصون: الموحدون.

- ولذلك قيل لسورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ سورة الإخلاص، لأنها خالصة فى صفة الله، تعالى الله وتقدس، أو لأن اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله عز وجل.

- وكلمة الإخلاص: كلمة التوحيد.

- والإخلاص فى الطاعة ترك الرياء.

- وقال الجرجانى: الإخلاص: ألا تطلب لعملك شاهدًا غير الله تعالى.

- وأجمعوا على أن الإخلاص فى الطاعة ترك الرياء.

- وقال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص: الخلاص من هذين.

٢- دعوة الإسلام إلى الإخلاص:

وقد دعا الإسلام إليه ورغب فيه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[2] وأمر الله به فقال: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[3].

روى ابن أبى حاتم، عن طاووس، أن رجلا قال: يا رسول الله ... إنى أقف المواقف، أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطنى؟ فلم يرد عليه رسول ﷺ شيئا، حتى نزلت هذه الآية:

---

(١) سورة ص الآية ٨٣.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) سورة البينة الآية ٥.

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١).

٣ - الإخلاص دليل كمال الإيمان:

روى أبو داود بسند حسن أن الرسول ﷺ قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان».

- والله سبحانه ينظر إلى القلوب لا إلى المظاهر والأشكال.

- عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال:

«إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم].

- وعن أبي موسى الأشعرى قال: سئل الرسول ﷺ ... الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» [رواه البخارى] أى قاتل من أجل إعلاء الحق ورفع رايته.

٤ - الإعجاب بثناء الناس لا ينافى الإخلاص:

وإذا عمل المرء العمل وأخلص فيه ثم أطلع عليه الناس دون قصد منه، وأعجبه ثناؤهم عليه، فهذا لا يحبط العمل، ولا ينافى الإخلاص.

- روى الترمذى عن أبى هريرة، أن رجلا قال:

يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره (٢)، فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك؟

قال رسول الله ﷺ: «له أجران: أجر السر، وأجر العلانية».

بل قد يكون ثناء الناس من البشريات المعجلة.

فعن أبى ذر ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ قال:

أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه؟

قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» [رواه مسلم].

٥ - حقيقة الإخلاص:

إن حقيقة الإخلاص باعتباره التزامًا فى مواقف الحياة وهو «التبرى من كل ما دون الله» جعلنا ننظر إليه من زاويتين:

الأولى: من حيث تعلقه بالعمل، أو من حيث كونه واقعًا بحياة الناس ومواقفها، أو من حيث كونه يتعلق بسلوك الإنسان نجد العمل الصادر عن الإنسان - أيا كان - إذا قصد به وجه الله، وظهرت الشواهد على ذلك، فإنه يعد مخلصًا لأنه خالص من الشرك والرياء والكذب لأن

(١) سورة الكهف الآية ١١٠.

(٢) فيسره: يخفيه على الناس لاخلاصه.

العمل الإنسانى قد يشوبه شىء من ذلك.

– وإذا كانت المعانى السالفة عن رياء وغش تمتد إلى العمل فتجعله شركًا بوجه من وجوه الشرك، إذن فإن من الشرك ما هو خفى وما هو جلى، وكذلك الإخلاص، وكلاهما وارد على قلب المسلم. ويكون ذلك فى المقصود والنية ولذلك يأتى الفعل على قدر النية، إما مخلصًا وإما غير مخلص، ومن كان غرضه التقرب إلى الله فهو مخلص وإلا فلا.

ولذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة خالصة لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب، بل العمل الخالص هو الذى لا باعث له إلا طلب القرب من الله تعالى[1].

وبناء على ما سبق فإن:

– الإخلاص هو تصفية السر والقلب والعمل.

– والإخلاص هو الذى لا باعث له إلا طلب الحق.

– والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل.

– والإخلاص لله هو ألا يفعل المخلص فعلًا إلا لله تعالى.

الثانية: من جهة معناه وشروطه، كموقف يلتزم به الإنسان فى حياته.

وفى هذا الصدد قالوا: الإخلاص أربعة أقسام:

– إخلاص فى الأقوال. – إخلاص فى الأفعال.

– إخلاص فى العبادات – إخلاص فى الأحوال.

والدين شامل لكل هذا.

وخلاصة الأمر: أن الإخلاص تصفية للقول والعمل والعبادة مما يشوبها من رياء ومراءاة أو خداع أو كذب[2].

٦ - الإخلاص فى حياة الرسول وأصحابه:

لقد كانت حياة الرسول ﷺ كلها إخلاصًا، فقد جاء فى القرآن الكريم على لسانه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [3].

– وقد تجلى صلى الله عليه وسلم فى العبادة والنصح للمسلمين.

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كان الإخلاص رائدهم فى كل ما يقومون به.

– ومن الأمثلة التطبيقية فى حياة الصحابة ما جاء فى حديث سعد بن أبى وقاص ﷺ قال: وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السفينة:

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة الزمر الآية ١٤.

«أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئًا» فقال عكرمة:

«والله لئن لم ينجنى من البحر إلا الإخلاص، لا ينجنى فى البر غيره، اللهم إن لك علىّ عهدًا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آت محمدًا ﷺ حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم» [رواه النسائى].

٧ - من صور الإخلاص ومظاهره:

مما سبق يتضح لنا أن للإخلاص صورًا متعددة تتمثل فيما يلى:

- الإخلاص فى التوحيد.
- الإخلاص فى النية والقصد.
- الإخلاص فى العبادات: الصلاة، الصيام، قيام رمضان، إحياء ليلة القدر، حب المساجد، الزكاة، الصدقة، الجهاد، التوبة والذكر والاستغفار والدعاء وقراءة القرآن وسائر القربات.
- الإخلاص فى الأقوال كلها.
- الإخلاص فى الالتزام بمكارم الأخلاق كالصبر والزهد والتواضع.. إلخ.
- الإخلاص فى التوكل على الله.
- الإخلاص فى كافة الأعمال.

قصة بليغة فى الإخلاص

قال أبو حامد الغزالى: ورد فى الإسرائيليات أن عابدًا كان يعبد الله دهرًا طويلًا فجاءه قوم فقالوا: إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال له: أين تريد أيها الشيخ يرحمك الله؟

قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة.

فقال له إبليس: تركت عبادتك وانشغلت بالشجرة.

قال العابد: إن هذه من عبادتى.

فقال له إبليس: فإنى لا أتركك تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه على الأرض وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقنى حتى أكلمك، فقام عنه.

فقال له إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك، وأنت لست تعبدها ولا يعنيك أن غيرك يعبدها، ولله تعالى أنبياء فى أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها.

فقـال العابد: لابد من قطعها. فنابـذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس وضعف ثم قال للعابد: هل لك فى أمر فصل بينى وبينك وهو خير لك وأنفع؟

قال: وما هو؟

قال: أطلقنى حتى أقول لك، فأطلقه.

فقال إبليس: أنت رجل فقير لا مال لك وكل الناس يحسـنون إليك. ولعلك تحب أن تشبع وتستغنى عن الناس وتحسن إلى جيرانك وإخوانك.

قال: نعم.

قال: فارجع عن هذا الأمر ولك علىَ أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهـا فأنفقت على نفسـك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسـلمين من قطع هذه الشـجرة التى ربما يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شـيئا ولا ينفع إخوانك من المؤمنين قطعك إياها.

ففكر العابد فيما قال، وقال فى نفسه: صدق الشيخ لست بنبى فيلزمنى قطع هذه الشجرة ولا أمرنـى الله أن أقطعهـا فأكون عاصيًا بتركها، وفـى الدنانير فائدة عظيمـة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى صومعته فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسـه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شـيئًا. فغضب وأخذ فأسـه على عاتقه فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال له: إلى أين؟

قال: عازم على قطع تلك الشجرة.

فقال له: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سـبيل لك إليها، فتناوله العابد ليفعل به ويصرعه كما فعل أول مرة فلم يستطع، فأخذه إبليس وصرعه على الأرض، فإذا هو كالعصفورة تحت رجليه وقعد إبليس على صدره، وقال له: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟

فبهـت العابـد لما رأى نفسـه لا طاقة له به فقال: يـا هذا: إنك غلبتنى فأطلق سـراحى وأخبرنى كيف غلبتك أولا وغلبتنى الآن؟

فتركـه، وقـال له: إنك غلبتنـى أول مرة لأنك غضبت لله وكانت نيتـك خالصة لوجه الله فمكنك الله منى، وهذه المرة غضبت من أجل الدنانير فتخلى الله عنك ومكننى منك[1].

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤ صـ ٥٤٢.

الفصل الثالث

الاستقامة

١ - دعوة الإسلام إلى الاستقامة:

دعا الإسلام إلى الاستقامة وجعلها أعلى المقامات، حتى قال العلماء: «إن الاستقامة هى عين الكرامة».

وأسلوبه فى الدعوة إليها يستهوى الأفئدة، ويؤثر فى النفوس، ويحملها على التزامها، والتعلق بأهدابها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (١).

أى إن الذين آمنوا بالله إيمانا حقا، واستقاموا على الطريق الذى رسمه لعباده، فإن الملائكة تتنزل عليهم عند الموت وتقول لهم:

لا تخافوا مما أمامكم من أهوال القبر وعذاب الآخرة، ولا تحزنوا على ما تركتم وراءكم من أموال وأولاد، وأبشروا بالجنة التى وعدكم الله بها.. وأن هؤلاء الذين قالوا ربنا الله واستقاموا، يتولاهم الله برحمته ورضاه، كما التزموا الاستقامة وساروا على الجادة دون اعوجاج أو انحراف، ولهم عند الله جميع الرغبات التى تشتهيها أنفسهم، ولهم جميع ما يطلبون (٢).

وذلك أعده الله لهم لأنه غفور يتجاوز عن سيئاتهم، ويدخلهم برحمته فى عباده الصالحين، عن سفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» [رواه مسلم].

٢ - الاستقامة طريق النجاة:

قال ابن القيم رحمه الله:

الاستقامة هى لزوم المنهج القويم .. قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ (٣).

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٠ - ٣٢.

(٢) بتصرف من كتاب إسلامنا/ السيد سابق.

(٣) سورة الأحقاف الآية ١٣ - ١٤.

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1]. فبين أن الاستقامة بعدم الطغيان وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾[2] والمقصود من استقامة العبد (السداد) فإن لم يقدر عليها (فالمقاربة).

- وعند مسلم من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

- فجمع فى هذا الحديث مقاومات الدين كلها. وأمر بالاستقامة وهى السداد. والإصابة فى النيات والأقوال، وأخبر فى حديث - ثوبان - أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة، وهى أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذى يرمى - بسهم - إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فقد أخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وغفرانه وفضله. فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهى القيام بين يدى الله تعالى على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها. وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله تبارك وتعالى.

- وقال رحمه الله.

من هدى فى هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه، هدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته دار ثوابه، وعلى قدر ثبوت العبد على هذا الصراط الذى نصبه الله لعباده فى هذه الدنيا، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط ولينظر العبد الشبهات والشهوات التى تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم فإنها الكلاليب التى بجنبتى ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا، وقويت فكذلك هناك: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[3].

٣ - أثر الاستقامة فى حياة الناس:

والاستقامة شأنها أن ترقى بالإنسان وتصل به إلى الذروة من الكمال. وتحفظ عقله وقلبه من أن يتطرق إليهما الفساد. وتصون نفسه من التردى فى حمأة الرذيلة..

(١) سورة هود الآية ١١٢.

(٢) سورة فصلت الآية ٦.

(٣) سورة فصلت الآية ٤٦.

– وإذا سيطرت الرغبة فى الاستقامة على جماعة، وسادت بينهم، حسنت أحوالهم واستقامت أمورهم، وعمهم الأمن والسلام.

وإذا ضعفت الرغبة فى الاستقامة، ضعف الإقبال على الخير، وعظم التورط فى الإثم، وفشا المنكر، وتعرض الفرد والجماعة للانحراف، والخطايا، والانحلال الذى يعقبه سلب الحرية والاستغلال.

– لهذا اهتم الإسلام بها اهتمامًا بالغًا، وأولاها عناية خاصة.

فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه خطا مستقيا، وخط عن يمينه خطوطا، وعن شماله خطوطا، ثم قال مشيرا إلى الخط المستقيم: هذا سبيل الله.

وقال مشيرا إلى الخطوط التى عن يمينه وشماله: هذه سبل. على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) [رواه الدرامى].

– روى أحمد: عن النواس بن سمعان الأنصارى، عن رسول الله ﷺ قال: ضرب الله مثلا صراطا مستقيمًا، وعلى جنبتى (٢) الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة. وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول:

يا أيها الناس: ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتفرجوا.

وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال:

ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه (٣).

والصراط: الإسلام ..

والسوران (٤): حدود الله تعالى..

والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى (٥)..

وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله (٦) – عز وجل.

والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم (٧).

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣.

(٢) جنبتى الصراط: جانبا الصراط.

(٣) تلجه: تدخله.

(٤) السوران: الحاجزان بين الحلال والحرام.

(٥) محارم الله: ما حرم الله.

(٦) لأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

(٧) ما أودعه الله فى القلب من الإيمان المانع مع الحرام.

٤ - إذا استقام القلب استقامت الجوارح:

قال ابن رجب رحمه الله تعالى:

«أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه. استقامت الجوارح كلها على طاعته. فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه.

وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه[1].

***

(١) بتصرف - جامع العلوم والحكم - ابن رجب.

الفصل الرابع

الأسوة الحسنة

١ - معنى الأسوة الحسنة:

الأسوة بمعنى القدوة، تقول: لى فى فلان أسوة «بالكسر أو الضم» أى قدوة أى الاقتداء الحسن.
وهى نوعان حسنة وسيئة.
ذكر الشيخ صالح بن حميد أن الأسوة نوعان:
(أ) الأسوة الحسنة: أى الاقتداء بأهل الخير والفضل والصلاح فى كل مايتعلق بمعالى الأمور وفضائلها.
(ب) والأسوة السيئة: تعنى السير فى المسالك المذمومة واتباع أهل السوء والاقتداء بهم من غير حجة أو برهان [١] .

٢ - أصول القدوة:

أصول القدوة المعتمدة عند أهل العلم ثلاثة:
الأصل الأول: الصلاح وهو يتحقق بثلاثة أركان:
الركن الأول: الإيمان.
الركن الثانى: العبادة.
الركن الثالث: الإخلاص.
الأصل الثانى: حسن الخلق.
الأصل الثالث: موافقة القول العمل.

٣ - شواهد حية فى مواقف القدوة:

يعد الصحابة رضوان الله عليهم نموذجاً أعلى فى القدوة وعلى رأسهم إمام الأئمة نبينا محمد ﷺ فهو الأسوة الحسنة للمسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [٢] .

---

(١) انظر كتاب مبادئ ونماذج فى القدوة/ الشيخ صالح بن حميد.
(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

– قال القرطبي: فيقتدى به رسول الله ﷺ في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله، فلقد شج وجهه، وكسرت رباعيته، وقتل عمه، وجاع بطنه ولم يُلْقَ إلا صابراً محتسباً، وشاكراً راضياً، عن أنس بن مالك قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. [أخرجه الترمذى] (١) .

ومن الشواهد الحية في القدوة: موقف الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن وكذلك العلماء العاملون من السلف والخلف ومن بعدهم على مر الزمان.

– ولولا رسول الله ﷺ لما كان أصحابه القريبون منه، ولولا هؤلاء لما كان من بعدهم من الناس، ولولا الفتح لما دخل الناس في دين الله أفواجاً.

٤ - أثر القدوة الحسنة في انتشار الإسلام:

إن من الوسائل المهمة جداً في تبليغ الدعوة إلى الله وجذب الناس إلى الإسلام وامتثال أوامره واجتناب نواهيه القدوة الطيبة للداعية وأفعاله الحميدة وصفاته العالية وأخلاقه الكريمة مما يجعله أسوة حسنة لغيره، يكون بها نموذجاً يقرأ فيه الناس معاني الإسلام فيقبلون عليها وينجذبون إليها. لأن التأثر بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام وحده. إن الإسلام انتشر في كثير من بقاع الدنيا بالقدوة الطيبة للمسلمين التي كانت تبهر أنظار غير المسلمين وتحملهم على اعتناق الإسلام.

كما أن القدوة الحسنة للداعي وسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام (٢) .

٥ - الأسوة خير مرشد:

الأسوة خير مرشد ينير الطريق، وهي مدرسة الإنسان العملية التي يرسخ تعليمها في النفوس ويعلق بالأفهام، والناس يميلون – بطبعهم – إلى أن يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلمون بآذانهم، ومهما أوتي المعلم من البراعة في تهذيب النفوس فليس ببالغ مايبلغه زميل له دونه في النصح وفوقه في السيرة. ولذا كان خير النصح: افعل كما أفعل لا كما أقول. ولما كانت غريزة التشبه والتقليد أقوى ماتكون في الأحداث وجب أن ينشأوا في بيئة صالحة ليشبوا نافعين كمن حولهم، ومن أجل ذلك كانت التربية البيئية أكثر أثرا وأعم نفعاً من التربية المدرسية، فالبيت أصل المجتمع، ومن ينبوعه تنبثق الآداب والأخلاق، ومحبة الأسرة مصدر المحبة الوطنية، ومن هذه الدائرة الصغيرة تتولد دوائر كبيرة تعم العالم أجمع، وصفات الوالدين تظهر في أولادهما إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٥٦.

(٢) مبادئ ونماذج في القدوة/ الشيخ صالح بن حميد.

وخير تراث يتركه الآباء للأبناء السيرة الحسنة، والقدوة الصالحة، فإنهما يدفعانهم إلى طريق الخير ويصدانهم عن الشر، ولا شرف أعظم من أن يسعد السلف والخلف كل بعمل الآخر الحميد. وذوو الهمة والمروءة لايقدرون أن يحركوا الناس للعمل مالم يكونوا هم من أهله، ولايكفينا أن نقول للناس: اعملوا كذا وكذا، بل علينا أن نعمل أمامهم كي يقتدوا بنا [1].

(١) بتصرف من كتاب الخلق الكامل محمد أحمد جاد المولى.

الفصل الخامس

إفشاء السلام

١ - فضل السلام:

شرع الإسلام التحية عند اللقاء وعند المفارقة، كمظهر من مظاهر المدنية الصحيحة. إذ إن التحية من شأنها، أن تؤلف القلوب، وتقوى الصلات، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان.

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا. ولاتؤمنوا حتى تحابوا. أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [رواه مسلم].

وعن عبد الله بن سلام ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» [رواه الترمذى].

٢ - صيغة التحية:

أتم صيغة للتحية هى : السلام عليكم [١] ورحمة الله وبركاته.

قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً﴾ [٢].

أى ليقل بعضكم لبعض: السلام عليكم، وهذا السلام تحية شرعها الله لكم، وكلها الخير والطيبة والبركة، لما فيها جلب المحبة، وتقوية عرى المودة.

وإنما جعلت تحية المسلمين بهذا اللفظ، وهو لفظ السلام، للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان، وأنهم أهل السلم ومحبو السلام. وإنما كانت هذه الصيغة أتم لما فيها من مزيد الثواب وإن كان يكفى لفظ «السلام عليكم ورحمة الله» فرد عليه. ثم جلس. فقال النبى ﷺ عشر[٣]. ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله أو «السلام عليكم» فقط.

عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال ﷺ: عشر. ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه. فجلس. فقال: عشرون ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس. فقال: ثلاثون. [رواه أبو داود].

---

(١) تقال بصيغة الجمع وإن كان المسلم عليه واحدا.

(٢) سورة النور الآية ٦١.

(٣) عشر: أى عشر حسنات.

هذه هى صيغة الإلقاء.

أما الجواب على هذا الترتيب :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- أو عليكم السلام ورحمة الله.
- أو وعليكم السلام.

ويصح أن يكون الجواب بصيغة الإفراد وإن كان الجمع أفضل.

٣ - حكم السلام:

السلام سنة مؤكدة، أما رده فهو فرض كفاية لازم لقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾[1].

أى إذا سلم عليكم أحد محييا، فواجب عليكم أن تردوا التحية بتحية مثلها أو أحسن منها.

أى إذا قال لكم أحد: السلام عليكم، فقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله... وهكذا.

- والأفضل أن يجعل أحسن رد للتحية لكرام الناس كالعلماء والفضلاء، ويرد عليها لمن هم دونهم. ويجزئ تسليم الواحد عن الجماعة، كما يجزئ رد الواحد عنهم فإن الواحد يقوم مقام الجميع. عن على ﷺ أن الرسول ﷺ قال:

«يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم» .

[رواه أبو داود]

٤ - آداب السلام:

من آداب السلام: أن يسلم القادم على من يقدم عليهم، والراكب على الماشى، والماشى على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير.

والسنة البدء بالسلام قبل الكلام كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

وسبب ذلك أن السلام أمان، ولا كلام إلا بعد الأمان.

وثبت عنه ﷺ أنه كان يسلم على الصبيان والنساء.

ومن الأدب أن يسلم الإنسان على أهل بيته إذا دخل عليهم.

ويستحب السلام عند الانصراف كما يستحب عند اللقاء.

ومن الأدب إذا دخل بيته فلم يجد أحداً أن يقول:

«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .

---

(١) سورة النور الآية ٨٦.

وإذا كتب أحد كتاباً وفيه التحية بالسلام فيجب الرد فوراً، وكذا إذا أبلغته السلام، فيقول: عليك وعليه السلام.

فعن عائشة – رضى الله عنها – قالت: قال لى رسول الله ﷺ:

«هذا جبريل يقرأ عليك السلام» قالت: قلت: عليك وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.

[البخارى]

وإذا سلم إنسان على آخر، ثم تلاقيا بعد افتراق – ولو قليلاً – فليسلم أحدهما على الآخر، ففى سنن أبى داود أن رسول الله ﷺ قال:

« إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة، أو جدار، أو حائط، ثم لقيه فليسلم عليه» وإذا سلم على أيقاظ، وبجوارهم نيام، فالسنة أن يخفض صوته بحيث يحصل سماع الأيقاظ، دون أن يستيقظ النيام، فقد كان ﷺ يسلم تسليماً لايوقظ نائماً، ويسمع اليقظان [1] .

٥ - الأحوال التى يكره فيها السلام :

- منها إذا كان المسلم عليه مشتغلاً بالبول أو الغائط أو الخلوة بأهله أو نحوهما.
- ولايسلم على من كان نائماً أو ناعساً «فى بداية النوم» .
- ولا على من كان فى الحمام أو فى المرحاض أو فى أى مكان به نجاسة.
- ويكره السلام على المؤذن، كما يكره السلام على الآكل إذا كانت اللقمة فى فمه ولايستحق المسلم جواباً فى هذه الحال.

وأما السلام على المشتغل بقراءة القرآن فقال الإمام أبو الحسن الواحدى: الأولى ترك السلام عليه لانشغاله بالتلاوة، فإن سلم عليه كفاه الرد بالإشارة.

ويرى النووى أنه يسلم عليه ويجب على القارئ الرد باللفظ، ثم يواصل القراءة، ومثله المشتغل بالدعاء المستغرق فيه. أ. هـ ملخصاً من الأذكار للنووى ص ٢٢٤.

٦ - حكم سلام الرجال على النساء والعكس:

تسلم المرأة على المرأة مثل الرجل على الرجل. وكذلك المرأة مع المحارم، لها أن تسلم عليها ويجب الرد عليها، ولهم أن يسلموا عليها، ويجب الرد عليهم.

- وإن كانت المرأة أجنبية عجوزا جاز السلام عليها، وكذلك إن كانت شابة اعتادت ملاقاة الرجال وكلامهم لافتنة فى السلام عليها.
- أما إن كانت شابة جميلة يخاف الافتتان بها فلا يجوز سلام الرجال عليها، وإن سلم لايستحق رداً، ولايجوز لها أن تسلم عليه، وإن سلمت لاتستحق رداً، لأن الرد مكروه.

(١) بتصرف من كتاب إسلامنا/ السيد سابق.

• ويجوز تسليم جماعة النساء على جماعة الرجال وجماعة الرجال على جماعة النساء.

والجماعة هنا تطلق على أكثر من واحدة، كما يجوز تسليم الواحد من الرجال على جماعة النساء، والواحدة من النساء على جماعة الرجال مادامت الفتنة مأمونة.

عن أسماء بنت يزيد – رضى الله عنها – قالت:

«مر علينا رسول الله ﷺ فى نسوة فسلم علينا» [رواه الترمذى] .

وفى صحيح مسلم عن أم هانئ بنت أبى طالب – رضى الله عنها – قالت:

«أتيت النبى ﷺ يوم الفتح وهو يغتسل، وفاطمة تستره، فسلمت عليه، فقال: من هذه؟ قلت أم هانئ بنت أبى طالب. قال: مرحباً بأم هانئ» ... إلى آخر الحديث.

وقد ثبت زيارة أبى بكر وعمر لأم أيمن وسلامهما عليها بعد وفاة الرسول ﷺ كما جاء فى مسلم.

٧ - المصافحة:

من تمام التحية المصافحة، وهى تستحب عند اللقاء مع بشاشة فى الوجه، فإن ذلك مما يزيد فى المودة والألفة بين الناس.

روى البخارى، أن قتادة قال لأنس: أكانت المصافحة فى أصحاب رسول الله ﷺ قال: نعم، وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من مسلمين يلتقيان، فيتصافحان، إلا غفر لهما قبل أن يفترقا» [رواه الترمذى] .

وعن الترمذى أيضا قال:

كان النبى ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده، حتى يكون الرجل الذى ينتزع، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه، ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له.

٨ - السلام على أهل الكتاب:

ذهب جمهور العلماء إلى أنه لايجوز ابتداء أهل الكتاب بالسلام لما رواه مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام» .

ويرى جماعة من أهل العلم جواز ابتدائهم بالسلام نقلاً عن ابن عباس.

والذى عليه الجمهور هو الصواب؛ لأن البدء بالسلام إعزاز لمن تسلم عليه، وإظهار لحبه ومودته، وهؤلاء لايجوز معهم شىء من ذلك، لأنهم ناصبوا المسلمين العداء، فإن سلموا لايزيد المسلم فى الرد على كلمة «وعليكم» .

فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» [رواه البخارى] .

واتفق العلماء على جواز ابتداء السلام على جماعة فيهم مسلمون وغير مسلمين كما فعل النبى ﷺ.

كما اتفقوا على جواز تحيتهم بغير السلام مثل: صبحك الله بالخير... ونحو ذلك [1].

٩ - السلام على العصاة والمبتدعين:

العصاة الذين لم يتوبوا عن معاصيهم، والذين يضيفون إلى دين الله ما ليس منه، ويبتدعون بدعاً ليست من الإسلام فى شىء. لايُسلَّم عليهم، ولايرد عليهم السلام إذا سلموا، زجرا لهم ولغيرهم.

واستدل البخارى على ذلك بما روى فى قصة كعب بن مالك ورفيقيه حين تخلفوا عن غزوة تبوك، ونهى رسول الله عن كلامهم، وكان كعب إذا سلم على الرسول لايرد عليه السلام.

قال البخارى: وقال عبد الله بن عمر: لاتسلموا على شَرَبةِ الخمر.

فإن اضطر إلى السلام على الظلمة ونحوهم، بأن دخل عليهم وخاف ترتيب مفسدة فى دينه أو دنياه أو غيرهما، إن لم يسلم، سلم عليهم [2].

١٠ - بدع يطلب تركها:

من ترك تحية الإسلام وتمسك بتحيات غير المسلمين تشبهاً بالغافلين من المسلمين أو بالنصارى واليهود وغيرهم، فقد أخطأ وجانب الحق وبعد عن سبيل الرشاد، ووقع فى البدع التى نهانا رسول الله ﷺ عن وقوعها فيها.

ومثل التحيات غير المشروعة (صباح الخير) ، (مساء الخير) ، (نهارك سعيد) .. وغير ذلك من التحيات المستوردة من خارج التشريع الإسلامى، فلا ينبغى لمسلم أن يبدأ مسلما بمثل هذه التحيات، ولن يجوز له بعد أن يسلم على أخيه المسلم السلام الشرعى أن يقول له مايريد من أمثال ماسبق ومن غيره مثل (كيف حالك) ..

ومن البدع أن تشير إلى أخيك المسلم بالسلام دون أن تنطق به، فإن بعض الناس إذا قابل مسلماً أشار إليه بيده واكتفى بذلك بدون ضرورة وذلك بدعة، أما إذا كان المسلَّم عليه بعيداً

(١) بتصرف من كتاب السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب. ص ٣١٥.

(٢) انظر كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق، ص ٢٢٨.

فأشرت إليه ليرى أنك تحييه ونطقت مع الإشارة بالسلام، فإن ذلك لا بأس به مادام لايسمعك، لأن الإشارة حينئذ دليل السلام وليست نائبة عنه، وكذلك يقال فى الرد [1].

١١ - تحية الأموات:

روى مسلم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قلت يارسول الله: كيف أقول إذا دخلت المقابر؟ قال: «قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية».

وقد صح عنه ﷺ أنه كان إذا زار أهل البقيع قال: «اللهم رب الأرواح الباقية، والأجسام البالية والشعور المتمزقة، والجلود المتقطعة، والعظام النخرة التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة أنزل عليها روحا منك وسلاما منى».

***

(١) راجع كتاب السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

الفصل السادس

الأمانة

الأمانة لغة: ضد الخيانة، ورجل أمين ومؤتمن بمعنى واحد.

واصطلاحاً:

قال الكفوى: الأمانة كل ما افترض الله على العباد فهو أمانة كالصلاة والزكاة والصيام وأداء الديـن، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسـرار، وقـال: كل مايؤتمن عليه من أموال وحرم وأسرار فهو أمانة.

١- الأمانة فى القرآن الكريم:

ذكر ابن الجوزى أن الأمانة فى القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

أحدها: الفرائض: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

الثانى: الوديعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (٢)

الثالث: العفة و «الصيانة» ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ (٣).

٢- حقيقة الأمانة ومفهومها:

للأمانة معنيان خاص وعام.

أما الخاص فهو أن يرد الشخص المال أو المتاع أو غيرهما إلى من ائتمنه عليه، لأنه حفيظ على هذا الشىء، راع له، ليس من حقه أن يتصرف فيه. فإذا ما طلبه صاحبه سارع برده إليه.

وأما العام فيتسع لأكثر من هذا، فيشمل كتمان السر، وإخلاص المشورة للمستشير، وصدق التبليغ فيما كلف الشـخص أن يبلغه، كما أنها تشـمل التكاليف الشـرعية عموماً من صلاة وزكاة وطهارة.

فالذى يستودعك سراً واثقا بك، مطمئنا إلى كتمانك، فأنت على سره أمين.

والذى يكلفك تبليغ خبر إلى آخر، قد اختارك للتبليغ عنه، فإذا ما أديت الرسالة صحيحة فأنت أمين.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٧.

(٢) سورة النساء الاية ٥٨.

(٣) سورة القصص الآية ٢٦.

والـذى يستشـيرك يفضى إليك بما فى نفســه وينتظر منك أن تبدى لــه رأيك صريحاً وإن خالفه ، فإن فعلت فأنت أمين.

وهكـذا ترتبـط الأمانة فى معناها العام وفى معناها الخــاص بعدة فضائل كالصدق والصبر والشجاعة والعفة والوفاء والعدل [1].

وقـد أمر الله تعالى برد الأمانة، وامتدحها، وعقب على هذا الأمر بالتخويف من الخيانة، لأنه سبحانه يسمع ما يقال، ويرى ما يُفعل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [2].

وذكر فى وصف المؤمنين ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [3].

٣ - أهمية التحلى بخلق الأمانة:

الأمانة فضيلة من الفضائل التى لايســتغنى عنها الإنســان فى معركــة الحياة، ليصل إلى غاياته المرجوة منها، ويحقق آماله المنشودة فيها.

كما أن الجماعة لايمكن أن ترســى قواعدها على دعائم ثابتة، ولاتشــيد بناء حياتها المتين إلا إذا اتصفت بالأمانة وحافظت عليها.

وإننا لنشاهد الفرق واضحاً بين رجلين: أمين وخائن.

فالأول موضع ثقة الناس واحترامهم، والخائن مناط سخطهم واحتقارهم.

ونتيجة لذلك أن ينجح الأول، بينما يخفق الثانى.

وقد أدركت الأمم أثر التحلى بهذا الخلق فى حياتها، فعملت على تنميته، والاتصاف به فبلغت بذلك شأنا بعيدا فى الحضارة والرقى [4].

٤ - الأمانة من أخلاق الرسل:

الأمانة من أبرز أخلاق الرســل عليهم الصلاة والسلام، فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب - فى سورة الشعراء - يخبرنا الله عز وجل أن كل رسول من هؤلاء قد قال لقومه:

﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

ورسولنا محمد ﷺ كان فى قومه قبل الرسالة وبعدها مشهوراً بأنه أمين وكان الناس يختارونه

---

(١) انظر من أخلاق النبى/ د. أحمد محمد الحوفى.

(٢) سورة النساء الآية ٥٨.

(٣) سورة المعارج الآية ٣٢.وسورة «المؤمنون» الآية ٨.

(٤) راجع كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق.

لحفظ ودائعهم عنده، ولما هاجر ﷺ وكل على بن أبى طالب ليقوم برد الودائع إلى أصحابها.

وجبريل عليه السلام أمين الوحى، وقد وصفه الله بذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (١).

ولولا صفة الأمانة فيه لما حصلت فيه الثقة بما يبلغ عن الله من شرائع ولما اصطفاه الله لحمل رسالاته إلى رسله من البشر.

وكذلك حال الرسل من البشر، لولا صفة الأمانة فيهم لما حصلت الثقة بما يبلغون عن ربهم، ولما اصطفاهم الله لحمل رسالاته للناس (٢).

٥ - المجالات التى تدخل فيها الأمانة:

والمجالات التى تدخل فيها الأمانة والخيانة كثيرة منها المجالات الآتية:

- الأموال - الأعراض - الأجسام والأرواح - المعارف والعلوم
- الولاية - الشهادة - القضاء - الكتابة - الأسرار
- الرسالات - السمع والبصر وسائر الحواس.. إلى غير ذلك من أمور.

والأمانة كلمة واسعة المدلول تتسع لجميع العلاقات.

فالتزام الإيمان وتعهده بأسباب النماء والبقاء أمانة، وإخلاص العبادة لله أمانة، وإحسان المعاملة مع الأفراد والجماعات أمانة، وإعطاء كل ذى حق حقه أمانة، وقد جاءت النصوص من القرآن والسنة وافية بهذا كله.

● ففى مجال الإيمان والعبادة يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٣).

● وفى مجال الحكم يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (٤).

● وقد روى مسلم عن أبى ذر رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله ألا تستعملنى؟

فضرب بيده على منكبى، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها».

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٩٢ - ١٩٤.

(٢) بتصرف من كتاب الأخلاق الإسلامية/ عبد الرحمن حسن حنبكه.

(٣) الأحزاب الآية ٧٢.

(٤) سورة النساء الآية ٥٨.

وقد روى البخارى أنه صلوات الله وسلامه عليه قال:

«إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» .

قيل يا رسول الله وما تضييع الأمانة؟

قال: «أن يوسد الأمر إلى غير أهله» .

● والودائع من أعظم الأمانة التى يجب حفظها وردها إلى أصحابها.

قال تعالى: ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ (١)

ويقول الرسول ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولاتخن من خانك» [أخرجه الدارقطنى] .

● وعن المجالس والحديث فيها يقول ﷺ: المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس سفك دم حرام.. أو فرج حرام.. أو اقتطاع مال بغير حق» [رواه أبو داود] .

إلى غير ذلك من مجالات (٢).

٦ - الدعوة إليها:

لخطورة الأمانة ولعظم شأنها دعا الإسلام إليها وحبب فيها وأمر بها فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (٣).

وهى إحدى صفات المؤمنين الذين يرثون الفردوس

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ (٤).

والتجرد عن هذه الفضيلة يسلب الإنسان جميع الفضائل وينظمه فى عداد المنافقين.

عن على ﷺ قال: كنا جلوسا مع رسول الله فطلع علينا رجل من أهل العالية، فقال:

يا رسول الله أخبرنى بأشد شىء فى هذا الدين وألينه؟

فقال: «ألينه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأشده يا أخا العالية الأمانة، إنه لا دين لمن لا أمانة له، ولا صلاة له ولازكاة له» [رواه البزار] .

ولهذا كله كان رسول الله يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة» [أبو داود] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٣.

(٢) انظر تفاصيل هذه المجالات كتاب الأخلاق الإسلامية وأسسها/ عبد الرحمن حنبكة وكتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق.

(٣) سورة النساء الآية ٥٨.

(٤) سورة المؤمنون الآية ٨.

الفصل السابع

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

١ - منزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

قال النووى رحمه الله: اعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان بعيدة، ولم يبق منه فى هذه الأزمان إلا شىء قليل جدا، وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك الله أن يعمهم بعقابه، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١).

القطب الأعظم:

قال الإمام أبو حامد الغزالى - رحمه الله - «إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، هو القطب الأعظم فى الدين، وهو السبب الذى ابتعث الله له النبيين، ولو طوى بساطه، وأهمل عمله وعلمه، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، وقد كان الذى خفنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب علمه وعمله، وقل على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم» (٢).

٢ - فضله وأهميته:

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣).

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضتان لازمتان لحفظ المجتمع المسلم وسلامته من الآفات والأمراض والمعاصى التى تفتك بالأمة، وتقضى على مقوماتها، وتصل بها فى النهاية إلى الهلاك والدمار.

وقد ذكر القرآن الكريم أمما كثيرة لعبت بها الأهواء وحكمتها الشهوات، واستحكمت فيها الذنوب حتى لم تستطع أن تتخلص منها، فصارت الذنوب أشبه بالحيوانات المتوحشة،

(١) سورة النور الآية ٦٣.

(٢) بتصرف من إحياء علوم الدين للغزالى (٢/ ٣٠٦) .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

فقضى الله فيها أن أبادها وأزالها من الوجود وأبقى القلة المؤمنة لتبدأ من جديد عهداً جديداً مليئا بروح الإيمان بالله، وبروح الطهر والعفاف والتماسك الخلقى.

وعن إفساد بنى إسرائيل وتماديهم فى المنكرات قال الله تعالى:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: ياهذا... اتق الله ودع ماتصنع فإنه لايحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال:

كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا» [رواه أبو داود] قوله: ولتأطرنه: أى لتردنه إلى الحق.

٣ - شروط وآداب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

الذى يقوم بين الناس ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر يشترط فيه شروط لابد من توفرها، وآداب لابد من مراعاتها، كما أن ماينبغى إنكاره له شروط أيضا لابد من استيفائها، وتوضيح هذا الإجمال كما يلى:

شروط الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر (٢):

- يشترط فى الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مكلفاً أى بالغاً.

- كما يشترط أن يكون مؤمناً، لأن النهى عن المنكر نصرة للدين، ولاتكون النصرة إلا من المؤمنين، وغير المؤمن لاسلطان له على المؤمنين.

- القدرة، وشرط القدرة منصوص عليه فى الحديث: «فإن لم يستطع فبلسانه...» ولا يخفى أن العاجز ليس عليه القيام بالأمر والنهى، ولكن عليه أن ينكر بقلبه فقط.

قال ابن مسعود ﷺ:

«جاهدوا الكفار بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا فى وجوههم فافعلوا».

وتعنى القدرة تحمل مايصيبه إذا أمر أو نهى، وهذا موضوع متفرع خلاصته:

إنه إن كان يعلم أنه إن تكلم وأمر ونهى لاينفع كلامه ويضرب ويهان فإنه لايجب عليه الأمر والنهى، ولكن يلزمه ألا يحضر مواضع المنكر إلا أن تكون هناك ضرورة، كضرورة الأسواق والمستشفيات، وركوب المواصلات العامة، والسير فى الشوارع - فإنها الآن مليئة بالنساء المتبرجات - ولاغنى للإنسان عن الوجود فيها.

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٩.

(٢) بتصرف من السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

وبقى شرطان آخران مختلف عليهما وهما العدالة، وإذن الإمام.

آداب الآمر الناهى:

للآمر بالمعروف الناهى عن المنكر آداب ينبغى التحلى بها ونحن نذكرها مجملة وهى ثلاثة:

أولهـا: العلـم: فعلى من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مُلماً بما يأمر به وينهى عنه من جهة الأحكام والأدلة.. ومن أمر ونهى بغير علم أفسد أضعاف مايصلح.

ثانيهـا: الـورع: لأن الورع يجعله يعمل بما يعلم، ويقف عنـد حدود الله فى أمره ونهيه بغـير غرور أو اعتداء بغير حق، كما أن الورع يجعله يعامل الناس بالحسـنى والتلطف مع رقة العبارة، وسماحة الوجه.

ثالثها: حسن الخلق: وهو أساس هذا الموضوع كله، فإن سيِّئ الخلق يضر أكثر مما ينفع.

شروط مايجب إنكاره:

الذى يجب إنكاره هو الأمر الذى استوفى أربعة شروط هى:

الشرط الأول:

كونه منكرا ممنوعا شـرعا سـواء كان من الصغائر أم من الكبائر، لأن المعاصى كلها مفسدة للأمة، ومضيعة للدين، ومتسببة فى عذاب الله يوم القيامة.

الشرط الثانى:

وهو أن يكون موجوداً فى الحال (أى متلبسـا به) ، وذلك بأن يرى شـارب الخمر، أو من يغازل النسـاء، ومن يزاحمهن متعمـداً، أو من يعلن منكرا من المنكـرات، فإن الواجب هو الإنكار فى هذه الحالة أى حالة إظهاره المنكر.

أما من فعل المنكر وانتهى ولايذكره، فإنه لايجب الإنكار عليه لاحتمال أنه تاب ورجع إلى الله، فإن تكلم فى المنكر معلناً عن نفسه أو مفتخراً فإن ذلك منكر آخر يجب الإنكار على فاعله.

الشرط الثالث:

أن يكون المنكر ظاهراً أمام المنكر بغير تجسس، فكل من عصى ربه وستر معصيته فى داره وأغلق على نفسـه بابه، لايجوز أن يتجسـس عليه، لأن الله تعالى نهى عن التجسـس، كما لايجوز الدخول عليه بغير إذنه لمعرفة المعصية إلا أن يظهر المنكر فى الدار ظهوراً يعرف من خارجه، كما لو ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم.

الشرط الرابع:

أن يكـون منكراً معلوماً بغير اجتهاد (أى مجمعا عليه) ، وذلك بأن يكون معلوما بالنص

الـذى لا يقبـل التأويل، أما ما كان منكرا عند بعض العلماء وليـس منكراً عند البعض الآخر فالإنكار فيه غير واجب، لأن الاحتمال قائم.

٤ - درجات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

للقيام بواجب الأمر والنهى مراتب يطلب معرفتها ليكون الآمر والناهى على بصيرة، وهى:

أولاً: التعريف:

وذلـك بأن يبين للمخطئ الحكم الشـرعى فيمـا أخطأ فيه، ويبين لفاعـل المنكر حكم الله فيه وما يجب عليه، فإن كثيرا من الناس لايعلمون الأحكام الشـرعية فى الأمور البديهية، ولـو علموها لوقفوا عندها، وذلك كالذى لايحسـن الركوع والسـجود فى صلاته أو لايحسـن الوضـوء، فإن المطلوب تعريفـه باللين واللطف، ولايفهمه أنه جاهـل، فإن هذا يعتبر إيذاء محرمـا، وما أكثر المنكرين الذين ينكرون على غيرهم ترك سـنة فيقعون فى عدة محرمات، مثل احتقارهم لغيرهم، وغرورهم بأنفسهم، وإيذاء أخيهم المسلم، وغيبته بعد تركه لهم.

والذى يمنع المنكر بمنكر كالذى يغسل الدم بالبول، وما أقدح هذا.

ثانياً: النصح والوعظ:

ويكون ذلك لمن يقدم على المنكر وهو عالم بأنه منكر، فينبغى أن ينصح ويخوف بالله تعالى وعقابه ولقائه وحسابه، وتذكر له الأخبار الواردة بالوعيد فيما يفعل وهكذا، وليحذر الواعظ أن يقصد بوعظه ونصحه إذلال غيره بالجهل، وإعزاز نفسه بالعلم، فإن ذلك يهلكه ويجعله كمن ينقذ غيره من النار بإحراق نفسه عمداً.

ثالثاً: الزجر والتعنيف بالقول الغليظ:

وذلـك يكون عند العجز عـن المنع عن المنكر باللين واللطف، وظهـور دلائل الإصرار على الذنب، أو يسـتهزئ بالواعـظ والناصح له، وذلك مثل قـول إبراهيم عليه السلام ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [1].

وهـذه الرتبة لايقدم عليها إلا عند الضرورة، وعدم إفادة الرتبة التى قبلها. ولاينطق عند التعنيـف إلا بالصـدق ولا يزجر إلا بالألفاظ العامة مثل يا أحمـق، ياجاهل، ومايجرى هذا المجرى، ويقتصد فى هذا ولا يسترسل.

رابعاً: التغيير باليد:

مثل كسـر آلة المنكر وإراقة الخمر وكسـر التماثيل، وإخراج من جلس فى المسـجد جنبا

(١) سورة الأنبياء الآية ٦٧.

ونحـــو ذلـــك، وفى هذا يقتصر على القدر المطلوب فقط، فلا يخرج الرجل الجنب من المســجد بجره من رجليه أو شده من أذنيه مثلا، وهكذا، ولا يلجأ الإنسان إلى هذا والذى قبله إلا إذا كان آمنا من حدوث ماهو أشد، وكان الوضع يسمح بذلك، وإلا فلا.

هــذا، وليس للولــد مع أبيه ولا للزوجة مع زوجها، ولا للخادم مع ســيده إلا اســتخدام التعريف والوعظ فقط من الرتب السابقة [1].

(١) بتصرف من السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

أمثلة من شجاعة العلماء فى النهى عن المنكر

● روى أن معاوية ﷺ حبس العطاء (المرتبات) عن الناس، فقام إليه أبو مسلم وقال له: يامعاوية إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك.

قال: فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال: مكانكم، وغاب عن أعينهم زمنا ثم خرج عليهم وقد اغتسل، فقال: إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل» [أبو داود].

وإنى دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم، إنه ليس من كدى ولا من كد أبى فهلموا إلى عطائكم..

وعن سفيان الثورى قال: أدخلت على أبى جعفر المنصور . بمنى.

فقال لى: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت له: اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً

قال فطأطأ رأسه ثم رفعه، فقال ارفع إلينا حاجتك.

فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم..

فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت حج عمر بن الخطاب ﷺ فقال لخازنه كم أنفقت؟

قال: بضعة عشر درهما، وأرى هاهنا أموالا لاتطيق الجمال حملها...

● وحكى أن (حطيطا الزيات) جيئ به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال له الحجاج: أنت حطيط؟

قال: نعم، سل عما بدا لك، فإنى عاهدت الله عند المقام – على ثلاث خصال:

إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن.

قال له الحجاج: فما تقول فى؟

قال: أقول إنك من ألد أعداء الله فى الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة.

قال له الحجاج: فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال: أقول: إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياه.

فغضب الحجاج وقال ضعوا عليه العذاب، فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب وجعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئا، فقيل للحجاج إنه فى آخر رمق.

قال: أخرجوه فارموا به فى السوق.. ثم مات، وكان ابن ثمانى عشرة سنة رحمه الله [1].

أمثلة من رفق العلماء وحكمتهم فى النهى عن المنكر

• من ذلك ما استدل به المأمون العباسى إذ وعظه واعظ وعنف له فى القول، فقال له: يا رجل أرفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [2].

• وروى أبو أمامة أن غلاما شاباً أتى النبى ﷺ فقال: يانبى الله أتأذن لى بالزنا؟ فصاح الناس به. فقال النبى ﷺ قربوه، ادن، فدنا حتى جلس بين يدى النبى ﷺ فقال النبى ﷺ «أتحبه لأمك؟» فقال لا جعلنى الله فداك. قال كذلك الناس لايحبونه لأمهاتهم، «أتحبه لابنتك؟» قال: لا جعلنى الله فداك. قال كذلك الناس لايحبونه لبناتهم، «أتحبه لأختك؟» وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحد: لا جعلنى الله فداك وهو ﷺ يقول: «كذلك الناس لايحبونه» .. فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه. وحصن فرجه» فلم يكن شىء أبغض إليه منه، يعنى الزنا [رواه أحمد] .

وقال حماد بن سلمة: إن (صلة بن أشيم) مر عليه رجل أسبل إزاره - أى طال ثوبه - فهَمّ أصحابه أن يأخذوه بشدة. فقال لهم: دعونى. أنا أكفيكم. فقال له: يا ابن أخى إن لى إليك حاجة، قال وماحاجتك ياعم؟ قال له: أحب أن ترفع من إزارك، فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره. فقال لأصحابه لو شتمتموه لقال لكم: لا ولاكرامة، وشتمكم [3].

***

(١) بتصرف من إحياء علوم الدين «٢/ ٥١٣» .

(٢) سورة طه الآية ٤٤.

(٣) انظر بتوسع كتاب السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

الفصل الثامن

الإنفاق والصدقة فى سبيل الله

١ - الصدقة وأسرارها الاجتماعية:

الإنسان يحب المال بطبعه، وهذا الحب يدعو صاحبه إلى البخل والحرص والجشع، والأنانية، والأثرة، وسائر الرذائل الخلقية.

وهذه الصفات - اللا أخلاقية - تنزل بالإنسان إلى مستوى الحيوان. ولا يتخلص المرء من هذه الرذائل، إلا بالتمرين على البذل، والدربة على العطاء، ومن ثم كانت الزكاة ضريبة إجبارية لا يستطيع المرء أن يتخلص منها. وإلى هذه المعانى تشير الآية الكريمة:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (١).

والفقراء يمثلون أكثرية من أفراد المجتمع، ولا بد من رعاية هؤلاء المساكين والعَجَزة والضعفاء والمحافظة على إنسانيتهم وكرامتهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإخراج جزء معلوم من أموال الأغنياء، حتى يكفى هؤلاء ليصبحوا أعضاء نافعين ومواطنين صالحين.

بالإضافة إلى ذلك فإن الجماعة التى ينتشر فيها الفقر، وينشب أنيابه فيها تشتعل فيها العداوة والبغضاء، فيهتز كيان الأمة بما يشيع فيها من تقاطع ولا سبيل للقضاء على شرور الفقر إلا بإخراج حق الفقراء ونصيبهم الذى فرضه الله لهم وجعله أمانة فى يد الأغنياء، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (٢).

ثم إن الزكاة تقوى الصلات بين الأغنياء والفقراء، وتجعل منهم أسرة واحدة متعاونة على الخير فضلًا عن تنمية المال، وتقوية الأواصر وهى الضمان الاجتماعى الذى يكفل التوازن بين الطبقات، وهى أفضل وسيلة لتوزيع المال، فهى فى الوقت الذى لا يضيق بها الغنى، ترفع مستوى الفقير إلى حد الكفاية، وتجنبه شظف العيش، وألم الحرمان(٣).

٢ - مفهوم الصدقة:

الصدقة فى المفهوم الإسلامى لا تنحصر فى عطاء المال، وإطعام الطعام، وكسوة الثياب، وتقديم الدواء والمسكن، ونحو ذلك، بل هى أعم وأشمل، فكل معروف صدقة.

(١) سورة التوبة الآية ١٠٣.

(٢) سورة الحديد الآية ٧.

(٣) بتصرف من إسلامنا/ الشيخ سيد سابق صـ ١٠٨.

روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «كل معروف صدقة».

وبهذا المفهوم الموسع يستطيع الفقراء أن يجدوا مجالات كثيرة - غير المال - يصنعون بها المعروف للناس، ابتغاء مرضاة الله، فيكسبون بها صدقات ينافسون فيها باذلى أموالهم من الأغنياء.

وروى البخارى ومسلم - أيضا - عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ:

«على كل مسلم صدقة».

قالوا: فإن لم يجد؟

قال: «فليعمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدق».

قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟

قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف».

قالوا: فإن لم يفعل؟

قال: «فيأمر بالخير».

قالوا: فإن لم يفعل؟

قال: «فيمسك عن الشر فإنه له صدقة».

ولقد يبدو ظاهرا أن يكون بذل الجهد للآخرين من الصدقات، فبذل الجهد على سبيل المعونة بغية مسرة صاحب الحاجة مثل مواساته بالمال، وبذل الجهد لإماطة الأذى عن الطريق معونة عامة ينتفع منها كل سالك فيه. وبذل الجهد لفعل خير عام هو أيضا معونة عامة تدخل فى مفهوم الصدقات بلا إشكال.

وبهذا المعنى الموسع للصدقات يدخل فى مفهومها كلام عطاء أو بذل تستفيد منه البهائم وسائر الحيوانات، وقد جاء هذا مصرحًا به فى كلام الرسول ﷺ.

روى البخارى ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة، إلا كانت له صدقة».

وفى رواية لمسلم عن جابر: «وما سرق منه له صدقة» (١).

٣ - فضل الصدقة:

قال صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا طيبًا - إلا كان الله أخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد» [أخرجه البخارى].

وقال صلى الله عليه وسلم:

«كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس» [أخرجه البخارى].

---

(١) بتصرف من الأخلاق الإسلامية وأسسها/ عبد الرحمن حنبكة.

وقد قال صلى الله عليه وسلم - يوما - لأصحابه «تصدقوا».

فقال رجل: إن عندى دينارا، قال أنفقه على نفسك.

فقال: إن عندى آخر، قال: أنفقه على زوجتك.

قال: إن عندى آخر، قال: أنفقه على ولدك.

قال: إن عندى آخر، قال: أنفقه على خادمك.

قال: إن عندى آخر، قال صلى الله عليه وسلم: «أنت أبصر به». [أخرجه أبو داود].

وقال عمر بن عبد العزيز: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه.

وقال ابن أبى الجعد: «إن الصدقة لتدفع سبعين بابًا من السوء، وفضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفًا، وإنها لتفك لحيى سبعين شيطانا.

وقال ابن مسعود ﷺ: «إن رجلا عبد الله سبعين سنة، ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه، ورد عليه عمل السبعين سنة».

٤ - فى فضل الإنفاق على الأهل والعيال والدابة:

روى مسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال:

«أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله».

وروى البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص أن النبى ﷺ قال له:

«وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل فى فى امرأتك» أى فى فم امرأتك.

وروى مسلم عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك».

فى جملة هذه الأحاديث يربى الرسول ﷺ فى المسلمين خلق حب العطاء، فيحثهم على الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، سواء أكان إنفاقا على الأهل والعيال والأقربين، أم إنفاقا على الدابة، أم إنفاقا على الأصحاب والإخوان، أم فى أى وجه من وجوه الخير.

وأبان الرسول ﷺ أن الأجر على الإنفاق ليس خاصًا فى الإنفاق على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات والجهاد فى سبيل الله ونحو ذلك، بل هو عام فى كل إنفاق يبتغى به وجه الله تعالى حتى ما يصنعه الرجل فى فم امرأته. ولكن اغتنام الأجر رهن باحتسابه عند الله تعالى، أى ابتغاء مرضاته فيه، وطلب ثوابه عز وجل، فما أعظم نعم الله تعالى على المسلم.

٥ - من قصص الذين نالوا البر فى العطاء:

● روى البخارى ومسلم عن أنس قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء[1] وكانت مستقبلة المسجد، وكان الرسول ﷺ يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها. قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب مالى إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ» ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» .

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه.

● وروى أن عمر بن الخطاب، كتب إلى أبى موسى الأشعرى أن يشترى له جارية من سبى «جلولاء» يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت إليه أعجبته فقال:

إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ .

فاعتقها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وطلبا لمرتبة البر فى الإنفاق.

● وروى فى أخبار عمر بن عبد العزيز، أنه كانت لزوجته جارية بارعة الجمال، وكان عمر راغبًا فيها، وكان قد طلبها منها مرارًا، فلم تعطه إياها.

ثم لما تولى عمر الخلافة، جاءت زوجته فزينت الجارية أحسن زينتها، وأرسلتها إليه، وقالت له: قد وهبتكها يا أمير المؤمنين، فلتخدمك.

قال عمر بن عبد العزيز لزوجته: من أين ملكتها؟

قالت: جئت بها من بيت أبى عبد الملك، ففتش عن كيفية تملك عبد الملك لها.

فقيل له: إنه كان على فلان العامل ديون، فلما توفى أخذت من تركته ففتش عن حال العامل، وأحضر ورثته وأرضاهم جميعا بالمال. ثم توجه للجارية وكان يهواها هوى شديدًا فقال لها: أنت حرة لوجه الله تعالى.

فقالت له زوجته: لم فعلت هذا يا أمير المؤمنين، وقد أزحت عن أمرها كل شبهة.

فقال لها: لست إذن ممن نهى النفس عن الهوى.

---

(١) بيرحاء: اسم لحديقة جيدة من نخل وكانت لأبى طلحة.

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٢.

٦ - بيان إخفاء الصدقة وإظهارها:

لما كان للصدقة وجهان.

الوجه الأول: أن يكون بذل الصدقة بصفة علنية.

الوجه الثانى: أن يكون بذل الصدقة بصفة سرية.

قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

فدلت هذه الآية على أن فى كل من إبداء الصدقة وإخفائها خيرا، إلا إن دفعها بصفة خفية خير وأفضل عند الله، وبه يكفر الله سيئات المنفق فى سبيله، ولكن يشترط فى إبداء الصدقة إخلاص النية وعدم تسرب الرياء إلى القلب، لأن مراءاة الناس فى العمل محبطة للعمل بمقدار نسبة الرياء.

وامتاز إخفاء الصدقة على إبدائها بفضل الأجر عند الله، وبتكفيره من سيئات المنفق، لأمور منها ما يلى:

أولا: لأن إخفاء الصدقة أكثر دلالة على الإخلاص فى ابتغاء مرضاة الله من إعلانها، وأبعد عن تسرب الرياء إلى قلب المنفق.

جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن أحد السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ثانيا: لأن فى إخفاء الصدقة سترًا لحال آخذ الصدقة، فكثير من الفقراء مستورى الحال يؤلمهم جدًا أن يعلم الناس بفقرهم وحاجتهم إلى أخذ الصدقات، وقد يؤثر بعضهم الجوع والفاقة على سد الحاجة عن طريق أخذ الصدقات المعلنة.

***

(١) سورة البقرة الآية ٢٧١.

الفصل التاسع

بر الوالدين

إن حق الوالدين على الولد هو أجل الحقوق وأعظمها بعد حق الله تعالى، لأن الله إذا كان هو الخالق الحقيقى للولد، فإن الوالدين هما مصدر هذا الخلق وسببه المباشر، ولأنهما بذلا من التضحيات والجهود من أجل تربية الأولاد، وإعدادهم للحياة ما يستحقان المكافأة عليه.

وهذه الحقوق الواجبة على الأولاد لآبائهم، تتمثل فى بر الآباء، والإحسان إليهم، والأدب معهم، وطاعتهم بالمعروف.

وقد جاء الإسلام داعيا الأولاد إلى النهوض بهذه الحقوق نحو آبائهم ولافتا أنظارهم إلى القيام بها، ليكونوا بررة مستحقين لبر الله ومثوبته.

فعن ابن مسعود قال: سألت النبى ﷺ:

«أى العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أى؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله» [رواه البخارى ومسلم].

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾(١)

وقد تضمنت هذه الآيات:

١ – الأمر بالإحسان إلى الوالدين مقابل إحسانهما إلى الولد، واقتران ذلك بالأمر بالعبادة والتوحيد.

٢ – والنهى عن نهرهما بغلظة وزجرهما بخشونة، وعن كل ما يسوء إليهما ولو بكلمة «أف» الدالة على الضجر والتبرم، فما بالك بغيرها.

٣ – وعلى الأولاد أن يتخيروا فى مخاطبة آبائهم أجمل الكلمات، وألطف العبارات.

٤ – وعليهم أن يتذللوا لآبائهم ويخفضوا جناح الذل لهم رحمة بهم وتعطفا عليهم.

٥ – ومن حقهم كذلك أن يدعو الله لهم أن يظلهم برحمته التى وسعت كل شىء، وأن يقول الولد فى دعائه لوالديه: «رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا».

وعموما فالوالدان من أرضاهما فقد أرضى الله تعالى، ومن أسخطهما فقد أسخطه، ومن

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ – ٢٤.

برهما وأحسن إليهما فقد شكر ربه، ومن أساء إليهما فقد كفر بنعمته، وهما الباب الموصل إلى الجنة، فمن برهما وصل، ومن عقهما منع.

١- من صور بر الوالدين:

أورد القرطبى - رحمه الله - فى تفسيره كلامًا كثيرًا مفاده:

- أن الله أمر بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره، فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1].

وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[2].

- من البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما.

- لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل يبرهما ولو كانا كافرين.

- من الإحسان إليهما والبر بهما - إذا لم يتعين الجهاد - ألا يجاهد إلا بإذنهما.

- ومن تمام البر صلة أهل الوالدين، وكان صلى الله عليه وسلم يهدى لأصدقاء خديجة برًا بها ووفاء لها وهى زوجته - رضى الله عنها، فما ظنك بالوالدين[3].

- خص رب العزة حالة الكبر لأنها الحالة التى يحتاجان فيها إلى بره، لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فهما يحتاجان إليه فى الكبر كما كان يحتاج إليهما فى الصغر.

- أن يتلطف معهما بقول لين لطيف كريم، وأن يجعل نفسه مع أبويه فى خير ذلة فى أقواله وأفعاله وسكناته فهذا من بر الوالدين.

- ومن برهما الترحم عليهما والدعاء لهما، وأن ترحمهما كما رحماك. وترفق بهما كما رفقا بك، إذ ولياك صغيرا، جاهلا، محتاجا، فآثراك على أنفسهما، وسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك، وتعريا وكساك، فلا تجزهما إلا ببرهما وطاعتهما، وحين يبلغان من الكبر الحد الذى كنت فيه من الصغر، فعليك أن تلى منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم[4].

٢- النهى عن العقوق:

وقد نهى الإسلام عن عقوق الوالدين، وجعله من أكبر الكبائر.

عن أبى بكر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» [رواه البخارى].

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) سورة لقمان الآية ١٤.

(٣) بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٠/١٥٥).

(٤) انظر بصائر ذوى التميز للفيروزابادى (٢/٢١١).

ومن العقوق أن يتسبب الإنسان فى شتم والديه وسبهما.

قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا يا رسول الله: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه» [رواه البخارى ومسلم].

٣ - حق الأم فى البر أكثر من الأب:

عن أبى هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

«يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟

قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك.

قال: ثم من؟ قال: أبوك» [رواه البخارى ومسلم].

قال القرطبى: فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغى أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب. وذلك أن صعوبة الحمل، وصعوبة الوضع، وصعوبة الرضاع، والتربية تنفرد بها الأم دون الأب.

وروى عن مالك ﷺ أن رجلا قال له: إن أبى فى بلد السودان، وقد كتب إلى أن أقدم عليه، وأمى تمنعنى من ذلك، فقال له: أطع أباك ولا تعص أمك.

ومعنى هذا أن الأم لها الحق فى العناية والرعاية والاهتمام أكثر من الأب، وأن أمرها إذا اصطدم بأمر الأب فهى الأحق بالطاعة، والأولى أن يحاول الابن التوفيق بينهما، وهذا الذى يظهر من قول الإمام مالك والله أعلم [1].

٤ - الأبوان المشركان لهما حق البر كالمسلمين:

أخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت: أتتنى أمى راغبة فسألت النبى ﷺ أأصلها؟

قال: نعم، فأنزل الله فيها: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [2].

وبناء على ذلك فبر الوالدين الكافرين أو الفاسقين واجب فى غير معصية، وذلك أن البر - كما ذكر القرآن - مقابل ما فعل الوالدان بالابن من معروف، وقدما له من خير، وقاما به من تربية، والكافران فى ذلك كالمسلمين. غير أنه لا يستغفر لهما ولا يدعو لهما بعد موتهما على الكفر.

٥ - بر الوالدين بعد وفاتهما:

وبر الوالدين ليس مقصورًا على برهما أثناء حياتهما، وإنما هو ممتد إلى ما بعد الوفاة،

(١) بتصرف من السلوك الاجتماعى فى الإسلام / حسن أيوب.

(٢) سورة الممتحنة الآية ٨.

فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليهما[1] والاستغفار لهما، وإنفاذ[2] عهدهما من بعدهما. وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» [رواه البخارى].

وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه» [رواه البخارى].

٦ - من البر استئذانهما للجهاد:

قال القرطبى: من الإحسان إليهما والبر بهما - إذا لم يتعين الجهاد - ألا يجاهد إلا بإذنهما، واستدل على ذلك بأحاديث منها:

- عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: «جاء رجل إلى نبى الله ﷺ فاستأذنه فى الجهاد، فقال أحىٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد» [رواه البخارى].

- وعن أبى سعيد ﷺ «أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال له: هل لك أحد باليمن؟ قال: أبواى. قال أذنا لك؟ قال: لا. قال فارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما» [رواه أبو داود].

وهذا دليل على وجوب استئذان الأبوين للجهاد إذا لم يتعين الجهاد عليه، والجهاد يتعين فى أحوال ثلاثة:

- أن يهاجم العدو بلده.

- أن يختاره الإمام المسلم للقتال.

- أن يكون الجيش الذى يدافع عن بلد إسلامى غير كاف، ويستطيع أن يساعد هذا الجيش.

٧ - حكم طاعتهما فى طلاق امرأته أو التزوج بمن لا يريداها:

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: كانت تحتى امرأة أحبها، وكان عمر يكرهها. فقال لى: طلقها فأبيت، فأتى عمر رسول الله ﷺ فذكر ذلك له.

فقال لى رسول الله ﷺ: «طلقها» [رواه الترمذى].

اختلف العلماء فيمن أمره أبوه بطلاق امرأته هل يطلقها أم لا؟

منهم من قال: يطلقها للنص السابق، لأن عمر كان ينظر بنور الله ويعمل لصالح الدين، وليس له هوى فيما يقول ويفعل إنما يقول ويفعل لله، وجمهور الفقهاء على أنه لا يطلقها.

---

(١) الصلاة عليهما: أى الدعاء لهما.

(٢) إنفاذ عهدهما: تنفيذ وصيتهما.

جاء كتاب الآداب الشرعية للمقدسى قوله: فإن أمره أبوه بطلاق امرأته لم يجب.. قال سندى: سأل رجل أبا عبد الله – يعنى أحمد بن حنبل – فقال له: إن أبى يأمرنى أن أطلق امرأتى. قال: لا تطلقها، قال: أليس عمر أمر ابنه عبد الله أن يطلق امرأته؟ قال له: حتى يكون أبوك مثل عمر.

وكذلك اختلفوا فيما لو أمرته أمه أن يطلق.. وقد قال الشيخ تقى الدين – فيمن تأمره أمه بطلاق امرأته: لا يحل له أن يطلقها، بل عليه أن يبرها، وليس تطليق امرأته من برها، انتهى.

والذى عليه أهل العلم أن زوجته إن كانت تؤذى أبويه أو أحدهما، فأمراه أو أمره أحدهما بطلاقها وجب عليه طلاقها وإلا فلا. وكذلك إذا كانت تعصى الله بترك الصلاة أو الخروج سافرة، أو تحرض أبناءها على المعصية أو على عقوق أبيهم، وأشباه ذلك مما هو واقع فى زماننا.

وفى مسألة ما إذا أراد الوالدان أو أحدهما أن يلزما ابنهما بالزواج ممن لا يريدها، فقد قال الشيخ تقى الدين: إنه ليس لأحد الأبوين أن يلزم الولد من لا يريد، وأنه إذا امتنع لا يكون عاقًا [1].

قصة بليغة فى حق الأبوة

قال القرطبى فى تفسيره: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبى أخذ مالى، فقال النبى ﷺ للرجل: فائتنى بأبيك، فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام، ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه.

فلما جاء الشيخ قال له النبى ﷺ: «ما بال ابنك يشكوك؟ أتريد أن تأخذ ماله؟».

فقال: سله يا رسول الله هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسى، فقال له رسول الله ﷺ: «إيه [2] دعنا من هذا. أخبرنى عن شىء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك؟».

فقال الشيخ: والله يا رسول الله مازال الله يزيدنا بك يقينا، لقد قلت فى نفسى شيئا ما سمعته أذناى. قال: قل وأنا أسمع. قال: قلت:

غذوتك مولودا وصنتك يافعا [3] ... تعل بما أجنى عليك وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرًا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعينى تهمل [4]

---

(١) انظر كتاب السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

(٢) إيه: بمعنى حسبك.

(٣) يافعا: شابا، تعل من العلة أى المرض، تنهل: تسقى منى ثانية.

(٤) فعينى تهمل: تبكى لأجلك.

تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيه أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذا لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المصاقب يفعل
فأوليتنى حق الجوار ولم تكن ... على بمال دون ما لك تبخل

قال: فحينئذ أخذ النبى ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك»[1]. [رواه الطبرانى].

(١) انظر التفسير القرطبى جـ ١٠ صـ ٢٤٥.

الفصل العاشر

تذكـــر المـــــوت

١ - قصر الأمل:

قال ابن الجوزى:

الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه، ولا يدرى متى يستدعى؟، وإنى رأيت خلقًا كثيرًا غرهم الشباب ونسوا فقدان الأقران، وألهاهم طول الأمل.

وربما قال العالم لنفســه: أشــتغل بالعلم اليوم ثم أعمل به غدًا، فيتساهل فى الذلل بحجة الراحة، ويؤخر الأهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غيبة أو سماعها، ومن كسب شبهة يأمــل أن يمحوها الورع، وينســى أن الموت قد يبغته. فالعاقل مــن أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه، فإن بغته الموت رئى سعيدًا، وإن نال الأمل ازداد خيرا [١].

وقال أيضا: إذا علم الإنسان بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل فى حياته ما يدوم له أجره بعد موته، فإن كان له شىء من الدنيا (أى من متاعها) وقف وقفًا، وغرس غرسًا وأجرى نهرا.. أو أن يصنف كتابا من العلم، فإن تصنيف العالم ولده المخلد، وأن يكون عاملا بالخير عالما فيه.

فينقل من فعله ما يقتدى الغير به، فذلك الذى لم يمت [٢].

٢ - ذكر الموت والاستعداد له:

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من ذكر هادم اللذات» .

قلنا يا رسول الله: وما هادم اللذات؟ قال: «الموت» [رواه الترمذى] .

وروى ابن ماجة عن ابن عمر أنه قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ فجاء رجل من الأنصار فسلم على النبى ﷺ فقال: يا رسول الله أى المؤمن أفضل؟

قال: «أحسنهم خلقا» .

قال: فأى المؤمنين أكيس؟

قال: «أكثرهم للموت ذكرًا وأحسنهم لما بعده استعدادا أولئك الأكياس» .

وروى الترمذى عن شــداد بن أوس أن النبى ﷺ قال: «الكيس من دان نفســه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» .

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى.

(٢) المرجع السابق.

قال العلماء – رحمهم الله: قوله عليه السلام: «أكثروا من ذكر هادم اللذات الموت» كلام مختصر وجيز، قد جمع التذكرة، وأبلغ في الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذاته الحاضرة، ومنعه من تمنيها في المستقبل، وزهده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ، وتزويق الألفاظ، وإلا ففي قوله عليه السلام: «أكثروا ذكر هادم اللذات» مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[1] ما يكفي السامع له ويشغل الناظر فيه [2].

٣ - العظات من ذكر الموت:

ينبغي أن تعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق الدار وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم. والموت أصعب منه. أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، لرحيله عنها.

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل. الرحيل. فلما توفي فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه. فقيل: إنه قد مات، فقال:

مازال يلهج بالرحيل وذكره ... حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه متيقظا متشمرا ... ذا أهبة لم تلهه الآمال

وقال التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله تعالى.

وكان عمر بن عبد العزيز ﷺ يجمع العلماء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال الدقاق:

من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة.

ومن نسي الموت عوقب بثلاث أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة. فتفكر في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مقرحًا للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهادمًا للذات، وقاطعًا للأمنيات.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥.

(٢) انظر التذكرة للقرطبي.

فهل تفكرت يا ابن آدم فى يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك، فإذا بك نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر.

فيا جامع المال، والمجتهد فى البنيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان، بل هى والله للذهاب والخراب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الذى جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك[1].

٤- ما يذكر الموت ويزهد فى الدنيا:

روى مسلم عن أبى هريرة قال: زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال: «استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».

وعن ابن ماجه عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها. فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة» وزيارة القبور للرجال متفق عليها عند العلماء، مختلف فيها للنساء، أما الشواب - جمع شابة - فحرام عليها الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك، وجائز ذلك لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال بلا خلاف.

قال القرطبى:

- قال العلماء رحمة الله عليهم: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها، وذلك بما يلى:

أحدها: الإقلاع عما عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر، والتخويف، والترغيب، وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب وينفع فيها.

الثانى: ذكر الموت، فيكثر من ذكره هادم اللذات ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات - كما تقدم ذكره - يروى أن امرأة شكت إلى عائشة - رضى الله عنها - قسوة قلبها فقالت لها: أكثرى من ذكر الموت يرق قلبك. ففعلت ذلك فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة - رضى الله عنها.

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصى ويلين القلب القاسى، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن فى النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته، ونزعاته، ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمنع الأجفان من النوم والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد فى الاجتهاد والتعب.

---

(١) انظر التذكرة للقرطبى.

يروى أن الحسن البصرى دخل على مريض يعوده، فوجده فى سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بلون غير اللون الذى ذهب به، فقالوا له: الطعام يرحمك الله فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه [1].

(١) المرجع السابق.

الفصل الحادى عشر

التواضـــــــــع

١ - فضل التواضع ابتغاء مرضاة الله:

حثت النصوص الإسلامية على التواضع ابتغاء مرضاة الله ورغبت فيه، وأبانت أن من تواضع لله كافأه الله على تواضعه بالرفعة: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وهذا من سنن الله فى عباده، كما أن من استكبر وتعالى على خلق الله أذله الله.

ومن الملاحظ أن الناس يحبون المتواضع ويألفونه، ويكرهون المستكبر ويأنفون عنه ولا يألفونه، والسر فى ذلك أن المتواضع ينزل نفسه إلى مستوى جلسائه فيعيش معهم بوداعة وانطلاق، ويعيشون معه بمثل ذلك، فيتم بينه وبينهم الألف والوئام، وذلك يولد المحبة، بخلاف المستكبر، فإنه يرفع نفسه فوق مستوى جلسائه، فيعيش وحده فى جوه النفسى المتعاظم، وحين يرى جلساؤه ومعاشروه ذلك منه يبتعدون عنه بنفوسهم فلا يألفونه، ويرونه يضع نفسه فوقهم فيكرهونه. فكلتا الثمرتين من النتائج الطبيعية لكلا العملين.

٢ - التواضع خلق الرسول عليه السلام:

ولما كان التواضع من الأخلاق التى تملك القلوب بالمحبة أمر الله رسوله بأن يخفض جناحه للمؤمنين، مع أنه صلى الله عليه وسلم رفيع المكانة فى نفسه، عظيم المنزلة عند الله. فقال الله تعالى له: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

● فكان صلوات الله وسلامه عليه يخفض جناحه للمؤمنين، فلا يتعاظم عليهم ولا يستكبر، ويجلس بينهم كواحد منهم، حتى يدخل عليه وهو فى أصحابه من لا يعرفه فيقول: أيكم محمد؟

وربما كانت توقفه الأمة وتأخذ بيده ليقضى حاجة لها، روى البخارى عن أنس قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبى ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

● وكان من تواضعه تحببه إلى الصغار بالسلام عليهم والمسح على رءوسهم ووجوههم.

روى مسلم عن جابر بن سمرة قال: صليت مع رسول الله صلاة الأولى (أى الظهر) ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان فجعل يمسح خدَّى أحدهم واحدا واحدا. قال: وأما أنا فمسح خدى. قال: فوجدت ليده بردا، أو ريحا كأنما أخرجها من جؤنة عطار.

(١) سورة الحجر الآية ٨٨.

«من جونة عطار: أى من السلة التى يضع فيها روائحه وعطره» .

● وقد ضرب الرسول المثل الأعلى فى التواضع، فقد بلغ من تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه كان فى بيته فى مهنة أهله يخدم نفسه، ويخدمهم، فيخصف نعله ويرقع ثوبه، وكان يعود المريض، ويتبع الجنازة، وكان يصافح أصحابه وهم جلوس ويقول لمن أراد أن يقوم له: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا» .

● وحدث أنه كان صلوات الله عليه فى سفر. فأمر أصاحبه بإصلاح شاة وإعدادها للأكل.

فقال واحد منهم: يا رسول الله علىَّ ذبحها.

وقال آخر: يا رسول الله علىَّ سلخها.

وقال ثالث: يا رسول الله علىَّ طبخها.

فقال الرسول ﷺ: وعلىَّ جمع الحطب.

فقالوا: يا رسول الله إنا نكفيك العمل.

فقال: إنى علمت أنكم تكفوننى، لكنى أكره أن أتميز عليكم، والله يكره من عبده أن يراه متميزًا بين خلقه [1].

● وأخرج الحاكم أنه صلى الله عليه وسلم: أتى برجل فأرعد من هيبته فقال له: «هون عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» .

٣ - الدعوة إلى التواضع:

لما كان التواضع من خير الخلال وأحب الخصال إلى الله وإلى الناس، وهو موجب للرفعة وباعث على التآلف ومحقق للحب والود، فقد أمر الله نبيه، وبين له أن ذلك من أسباب جمع القلوب عليه، فقال:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2] .

ولما للتواضع من أثر اجتماعى كبير: فقد أخبر صلوات الله وسلامه عليه أن الله أوحى به إليه، وأنه سبب من أسباب القضاء على البغى ومحو الفخر فقال:

«إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد» .

[رواه مسلم]

كما بين أنه سبب من أسباب الشرف والرفعة فقال:

«ما نقصت مال من صدقة. وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد إلا رفعه الله» .

[رواه مسلم]

---

(١) انظر الإحياء (٢/١٧) .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

وكثيرا ما نهى الرسول الكريم عن الكبر، وبغضه إلى المسلمين، وأمر بالتواضع وحببه إليهم، وكثيرًا ما ضرب لهم أعظم المثل والقدوة بنفسه مثل قوله:

لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله.

التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله.

لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرًا [1].

٤ - حكايات ونماذج رفيعة فى التواضع

- كان النبى ﷺ قد جهز قبل وفاته جيشا لمحاربة الروم بقيادة أسامة بن زيد، لكنه مات قبل أن يخرج الجيش.

فلما بويع أبو بكر بالخلافة أنفذ هذا الجيش وشيعه ماشيا وأسامة راكب. فقال له أسامة: لتركبن أو لأنزلن، فقال، والله لا نزلتَ ولا ركبتُ، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله.

- أخرج الدينورى عن الحسن قال: «خرج عمر بن الخطاب ﷺ فى يوم حار واضعا رداءه على رأسه، فمر به غلام على حمار فقال له: يا غلام احملنى معك، فنزل الغلام عن الحمار وقال: اركب يا أمير المؤمنين، [أى أمامى] قال: لا، ولكن اركب أنت وأركب أنا خلفك، تريد أن تحملنى على المكان الوطىء وتركب أنت فى الموضع الخشن؟

فركب خلف الغلام، ودخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون إليه» .

- وأخرج ابن سعد عن عبد الله الرومى قال: «كان عثمان ﷺ يلى وضوء الليل بنفسه، فقيل له: لو أمرت بعض العمال فكفوك؟ فقال: لا. إن الليل لهم يستريحون فيه» .

- أخرج البخارى فى الأدب عن صالح عن جدته قال: «رأيت عليا ﷺ اشترى تمرا بدرهم فحمله فى ملحفته، فقلت: أحمل عنك متاعك يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. أبو العيال أحق أن يحمل» [2].

***

(١) انظر الإحياء (٤/٢٨٠) .

(٢) انظر هذه النماذج وغيرها مخرجة فى كتاب/ السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

الفصل الثانى عشر

التـــوبـــة

تظاهرت دلائل الكتاب والسـنة وإجماع العلماء على وجوب التوبة، وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[2] وفتح باب الرجاء فقال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3].

وروى فى الصحيح عن ابن عمر – رضى الله عنهما – عن رسول الله ﷺ قال:

«الله أفـرح بتوبـة عبده من رجل نزل بـأرض دوية مهلكة معه راحلته، فنام واسـتيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى المكان الذى ضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه فغلبته عينه فاسـتيقظ، فإذا راحلته عند رأسـه فيها طعامه وشـرابه وزاده وما يصلحه. فالله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده» .

وعن أبى هريرة ﷺ قال: « سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «والله إنى لأسـتغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سـبعين مرة» [رواه البخارى] وعن أبى موسـى الأشـعرى عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» [رواه مسلم] وحكى أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسـناء تشترى تمرًا، فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسـه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبى ﷺ فذكـر له ذلك، فأنزل الله تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾[4].

١ - إطلاقات التوبة فى القرآن الكريم:

وردت كلمة التوبة فى القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

(١) سورة النور الآية ٣١.
(٢) سورة الشورى الآية ٢٥.
(٣) سورة الزمر الآية ٥٣.
(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٥.

(أ) بمعنى التجاوز والعفو، وهذا مقيد بعلى كقوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ (١).

(ب) بمعنى الرجوع والإنابة، وهذا مقيد بإلى، كقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢).

(جـ) بمعنى الندامة: وهذا غير مقيد كقوله تعالى: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٣).

٢ - معانى التوبة وأنواعها:

قال صاحب التعريفات: التوبة على ثلاثة معان:

الأول: الندم.

وثانيها: العزم على ترك العود إلى ما نهى الله عنه.

وثالثها: السعى فى أداء المظالم.

أما أنواعها:

فقيل هى نوعان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة.

- فتوبة الإنابة: أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك.
- وتوبة الاستجابة: أن تستحى من الله لقربه منك، قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٤).

وقيل بل هى ثلاثة:

- التوبة الصحيحة: وهى أنه إذا اقترف العبد ذنبا تاب عنه بصدق فى الحال.
- والتوبة الأصح: وهى التوبة النصوح (وسيأتى ذكرها) .
- والتوبة الفاسدة: وهى التوبة باللسان مع بقاء لذة المعصية فى الخاطر(٥).

٣ - شروط قبول التوبة:

ذكر العلماء شروطًا لقبول التوبة، ونلخص منها فيما يلى ما تؤديه النصوص:

(أ) إذا كانت التوبة من معصية لا تتعلق بحق إنسان فلقبولها شروط خمسة هى:

الشرط الأول: أن يقلع المذنب عن المعصية.

الشرط الثانى: أن يندم على فعلها.

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٤.

(٢) سورة النور الآية ٣١.

(٣) سورة التوبة الآية ٣.

(٤) سورة ق الآية ١٦.

(٥) انظر التعريفات للجرجانى ولسان العرب لابن منظور.

الشرط الثالث: أن يعزم على ألا يعود إليها أبدا.

الشرط الرابع: أن تكون التوبة قبل أن يحضر الموت، فإذا حضر الموت، وبلغت الروح الحلقوم لم تقبل التوبة حينئذ.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة قبل أن تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها أقفل باب التوبة، وكذلك إذا خرج الدجال، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما.

(ب) وإذا كانت التوبة من معصية تتعلق بحق إنسان فلقبولها شرط سادس يضاف إلى الشروط الخمسة السابقة، وهو: أن يؤدى لصاحب الحق حقه، أو نظير حقه، أو يحصل على مسامحته وعفوه من غير إكراه. فإذا تعذر عليه أن يسترضى أصحاب الحقوق. سأل الله أن يتولى عنه إرضاءهم. وحين يعلم الله صدق توبته وعجزه عن تأديته الحقوق لأهلها، فإن الله يتولى عنه يوم القيامة إرضاءهم ويغفر له.

وتصح التوبة الصادقة المستوفاة لشروطها من كل الذنوب مهما كان شأنها، فمن صدق في توبته غفر الله له، ولو كانت ذنوبه من أكبر الكبائر، كالقتل، والسرقة، والزنا وغير ذلك من الذنوب.

٤ - التوبة النصوح:

قال التهانوني: التوبة النصوح وهي من أعمال القلب تعني تنزيه القلب عن الذنوب، وعلامتها أن يكره العبد المعصية ويستقبحها فلا تخطر له على بال، ولا ترد في خاطره أصلا [١].

والتوبة النصوح هي التي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[٢].

والتوبة تنتظم الألم والندم على ما مضى، والإقلاع عن الذنب في الحاضر، والعزم الأكيد على استئناف حياة صالحة فيما يستقبل من الزمان، فإن كان ثمة حقوق للعباد وجب ردها إلى أصحابها، أو استحلالهم منها إن أمكن. وهذه التوبة هي التي يقبلها الله سبحانه ويفرح بها، يقول الله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه تبارك وتعالى: «أذنب عبدى ذنبا، فقال: اللهم اغفر لى ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب اغفر لى ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال أى رب

(١) التعريفات للجرجاني.

(٢) سورة التحريم الآية ٨.

(٣) سورة الشورى الآية ٢٥.

اغفـر لى ذنبـا، فقال تبارك وتعالى: أذنـب عبدى وثاب فعلم أن له ربـا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب وقد غفرت لعبدى. فليفعل ما شاء» [رواه البخارى ومسلم].

٥ - أقسام عصاة المؤمنين بالنسبة إلى التوبة:

يقسم القرآن العصاة من المؤمنين إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عصاة مؤمنون يفعلون السوء بجهالة، ثم يتوبون من قريب ويصلحون نفوسهم وسلوكهم، وهؤلاء قد وعدهم الله وعدا قاطعا بأن يتوب عليهم، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١).

القسم الثانى: عصاة مؤمنون خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئا، واعترفوا بذنوبهم، ولكن دون أن تكون منهم توبة واستقامة.

وهؤلاء لم يعطهم الله وعدا قاطعا بأن يتوب عليهم، ولكن أعطاهم رجاء بذلك، وقد دل على ذلك الرجاء قوله تعـالى: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

القسم الثالث: عصاة مؤمنون أسرفوا على أنفسهم، فلم يتوبوا بذنوبهم.

ورجـاء هـؤلاء بالتوبة والمغفرة ضعيـف، ولكنه غير منقطع نهائيـا، وتوقع العقوبة هو الأرجـح بالنسـبة إليهم، وقد دل علـى ذلك قوله تعـالى: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣).

* * *

(١) سورة النساء الآية ١٧.

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٢.

(٣) سورة التوبة الآية ١٠٦.

الفصل الثالث عشر

التوكل على الله

١ - مواطن التوكل:

إن التوكل على الله – عز وجل – مطلوب فى كل شئون الحياة، بيد أن هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحض على التوكل. قال الفيروز ابادى:

– إذا طلبتم النصر والفرج فتوكلوا عليه: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

– إذا أعرضت عن أعدائك فليكن رفيقك التوكل: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٢).

– إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٣).

– إذا تلى القرآن عليك أو تلوته فاستند على التوكل: ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٤).

– إذا طلبت الصلح والإصلاح بين قوم لا تتوسل إلى ذلك إلا بالتوكل: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٥).

– إذا وصلت قوافل القضاء فاستقبلها بالتوكل: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٦).

– إذا نصبت الأعداء حبالات المكر فادخل أنت فى أرض التوكل: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾(٧).

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٠.
(٢) سورة النساء الآية ٨١.
(٣) سورة التوبة الآية ١٢٩.
(٤) سورة الأنفال الآية ٢.
(٥) سورة الأنفال الآية ٦١.
(٦) سورة التوبة الآية ٥١.
(٧) سورة يونس الآية ٧١.

– إذا عرفت أن مرجع الكل إلى الله فوطن نفسك على فرش التوكل: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾(١).

– إذا علمت أن الله هو الواحد على الحقيقة، فلا يكن اتكالك إلا عليه: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾(٢).

– إذا كانت الهداية من الله فاستقبلها بالشكر والتوكل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٣).

– إذا خشيت بأس أعداء الله والشيطان فلا تلجأ إلا إلى باب الله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٤).

– إذا أردت أن يكون الله وكيلك فى كل حال فتمسك بالتوكل فى كل حال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٥).

– إذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل فى مقام التوكل: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٦).

– إن شئت أن تنال محبة التوكل فانزل أولا فى مقام التوكل: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٧).

– إذا أردت أن يكون الله لك وتكون لله خالصا فعليك بالتوكل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾(٨).

٢ - فضيلة التوكل:

قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾(٩) وقال تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١٠)

(١) سورة هود الآية ١٢٣.
(٢) سورة الرعد الآية ٣٠.
(٣) سورة إبراهيم الآية ١٢.
(٤) سورة النحل الآية ٩٩.
(٥) سورة النساء الآية ٨١.
(٦) سورة النحل الآية ٤٢.
(٧) سورة آل عمران الآية ١٥٩.
(٨) سورة الطلاق الآية ٣.
(٩) سورة الفرقان الآية ٥٨.
(١٠) سورة الأنفال الآية ٢.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾[1].

وعن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير». [رواه مسلم]

قيل معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة، وعن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانا» [رواه الترمذى].

أى تذهب فى أول النهار ضامرة البطون فارغتها، وتروح فى آخر النهار ممتلئة البطون من الشبع.

هذا الحديث يؤكد العقيدة الإيمانية فى قضية الرزق، ويوجه المؤمن إلى صدق التوكل على الله حتى تكون مساعيه فى اكتساب الرزق متسمة بخلق الثقة بالمقادير الربانية، وبالوعد الربانى الذى ضمن الله فيه لعباده أرزاقهم، وكلفهم السعى لتحصيل ما قسم لهم، فلا تموت نفس حتى تستوفى ما قدر لها من رزق.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من دعانى أجبته، ومن استغاثنى أغثته، ومن استنصرنى نصرته، ومن توكل على كفيته، فأنا كافى المتوكلين، وناصر المستنصرين، وغياث المغيثين، ومجيب الداعين.

قال الشاعر:

وما ثم إلا الله فى كل حالة ... فلا تتكل يوما على غير لطفه

فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى ... وخيرته فيها على رغم أنفه

٣ - ضرورة التوكل:

والإنسان وهو فى صراعه مع الحياة تنتابه المخاوف، وتعتريه الصعاب، وتنزل به الآلام النفسية، فلا يجد للحياة طعما، ولا يستطيع مع هذا القلق أن يقوم بدوره الرئيسى فى إسعاد نفسه ونفع غيره، فتتعطل قواه المادية والأدبية، ويصبح شيئًا تافها لا قيمة له ولا غناء فيه، والحياة لا تطيب للإنسان، ولا يسعد بها، ولا يستطيع أن يقوم بدوره الكامل فيها إلا إذا استمتع بسكينة النفس، وطمأنينة القلب، وراحة البال، وعافية البدن.

وسبيل ذلك أن يثق بالله ويحسن الظن به، ويتوكل عليه، ويرد أمره كله إليه، ففى الحديث القدسى «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى» [رواه البخارى].

(١) سورة الطلاق الآية ٣.

ومن ثم كان التوكل على الله ضرورة حياتية، لا يستغنى عنه العالم، ولا العامل، ولا الرجل، ولا المرأة، ولا الحاكم، ولا المحكوم، ولا الصغير، ولا الكبير، لحاجة هؤلاء جميعًا إلى يد قوية حانية، تعينهم إذا أقدموا من جانب، وتمسح آلامهم إذا أخفقوا من جانب آخر[1].

٤ - الدعوة إلى التوكل:

إن الناظر فى الإسلام يرى دعوته صريحة فى الاتصاف بهذه الصفة والتحلى بها. فالله سبحانه يأمر بالتوكل عليه فيقول: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[2].

والتوكل ثمرة من ثمرات الإيمان: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3] والمتوكلون على الله يكفيهم الله كل ما أهمهم من أمر الدنيا والآخرة: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾[4] أى كافيه.

والتوكل منهج الرسل جميعا: إليه يلجئون، وبه يلوذون فالقرآن يحكى أنهم كانوا دائما يقولون: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[5].

والمسلمون بعد غزوة أحد حين هددوا بتجمع الأعداء، وقيل لهم: إن المشركين قد اجتمعوا للقضاء عليكم، لم يبالوا بذلك معتمدين على الله ومفوضين الأمر له فصرف الله عنهم العدو، وسجل لهم هذا الموقف الرائع فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ۚ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾[6].

ويقول الرسول ﷺ:

«إن حسن الظن بالله من عبادة الله» [رواه أبو داود والحاكم].

وإبراهيم عليه السلام كان آخر قوله حين ألقى فى النار:

حسبى الله ونعم الوكيل فأنجاه الله من النار وجعلها بردا وسلاما عليه[7].

وقال جابر: «كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ. فجاء رجل من المشركين، وسيف رسول الله معلق بالشجرة، فاخترطه (أى سله).

(١) انظر كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٨.

(٣) سورة إبراهيم الآية ١١.

(٤) سورة الطلاق الآية ٣.

(٥) سورة إبراهيم الآية ١٢.

(٦) سورة آل عمران الآية ١٧٣ - ١٧٤.

(٧) انظر كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق صـ ٤٠.

فقال: تخافنى. فقال: لا.

قال: فمن منعك منى؟

قال: الله فسقط السيف من يده فأخذه الرسول ﷺ.

فقال: «من يمنعك منى؟

فقال: كن خير آخذ.

فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟» .

قال: لا، ولكن أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

فخلى سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس» . [رواه البخارى ومسلم] .

٥- التوكل والأسباب:

الإنسان مسوق إلى الأخذ بالأسباب بمقتضى فطرته وبمقتضى تكليف الله له، وإهمال هذه الأسباب مناف للفطرة، ومخالف لأمر الله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾[1] .

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾[2].

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[3] .

وقال تعالى مخاطبا لوطا عليه السلام لينجو بأهله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾[4].

وقال لموسى عليه السلام فى مثل هذا الموقف: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾[5].

وفى العلاج والتداوى يأمر الدين بالأخذ بأسبابهما ويحض عليهما.

فقالوا: يا رسول الله: أنتداوى؟

فقال: «تداووا. فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد هو الهرم» .

[رواه ابن ماجة]

وكان الرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك فقد كان يأخذ لكل أمر عدته، ويستعد للاقاة أعدائه الاستعداد الكامل، ويتخذ جميع أسباب النصر، وكان يعمل ويسعى للكسب، ويأمر غيره بالسعى والكدح، وما كان يترك السبب الذى جعله الله موصلا للغاية، إذ إن ترك السبب مجافاة النظام الذى وضعه الله للحياة، وما كانت مجافاة نظام الحياة موصلة إلى شىء [6].

(١) سورة النساء الآية ٧١.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٧.

(٤) سورة هود الآية ٨١.

(٥) سورة الدخان الآية ٢٣.

(٦) بتصرف من كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق.

وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وأراد أن يترك ناقته على باب المسجد دون أن يعقلها فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل؟ أو أطلقها وأتوكل؟

فقال النبى ﷺ «اعقلها وتوكل» [رواه الترمذى] .

فالتوكل على الله لا يتحقق إلا باتخاذ الأسباب، ومتابعة سنن الله وقوانينه أولا، ثم الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه وترك النتائج له ثانيا.

٦ - الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل:

قال ابن القيم الجوزية: التوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل.

ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية[1].

ولقد رأى عمر ﷺ قوما تواهموا أن التوكل هو ترك مباشرة الأسباب فأعرضوا عن العمل، وركنوا إلى العجز والكسل، فقال لهم: ما أنتم؟

فقالوا: متوكلون. قال: كذبتم، ما أنتم متوكلون.

إنما التوكل: رجل ألقى حبة فى الأرض، ثم توكل على الله. [رواه الحاكم] .

ومثل من ترك العمل راجيا أن يحصل على ما يريد، كمن يريد أن يطير فى الجو بلا جناح، أو يريد الولد بلا زواج، أو يريد تحريك الآلات بلا وقود وإنبات النبات دون تعهد.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

٧ - بين التوكل والاتكال:

إن الأخذ بالأسباب مع تفويض أمر النجاح لله تعالى والثقة بأنه عز وجل لا يضيع أجر من أحسن عملا، وهو من التوكل المأمور به، أما القعود عن الأسباب وعدم السعى فليس من التوكل فى شىء وإنما هو اتكال أو تواكل حذرنا منه رسول الله ﷺ ونهى عن الأسباب المؤدية إليه، مصداق ذلك ما جاء فى حديث معاذ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» .

قال (معاذ): قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئا» .

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٢٥) .

قال: قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا» [رواه مسلم].

وهنا وضع الرسول ﷺ قاعدة جليلة هي: أن كل ما يؤدى إلى ترك العمل أو يكون مظنة للاتكال أو التواكل فليس من التوكل فى شيء.

وقد جاء فى الحوار الذى دار بين المصطفى ﷺ وعمر بين الخطاب ﷺ ما يؤكد هذه الحقيقة كما جاء فى رواية مسلم:

قال عمر: يا رسول الله بأبى أنت وأمى أبعثت أبا هريرة بنعليك، من لقى يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه، بشره بالجنة؟

قال: «نعم».

قال (عمر): «فلا تفعل. فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملون».

قال رسول الله ﷺ: «فخلهم يعملون».

يفهم من هذا الحديث والذى قبله أن الاتكال يعنى ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب، وأن ذلك ليس من التوكل فى شيء.

قصة حاتم الأصم فى التوكل

حكى أن حاتم الأصم كان رجلًا كثير العيال وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان مشهورًا بالتوكل فجلس ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج، فدخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى البيت الحرام فى هذا العام حاجًا، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟

فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئا من حطام الدنيا ونحن على ما ترى من الفقر والحاجة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟

وكانت له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء فإنه مناول للرزق وليس برزّاق.

فقالوا: صدقت. انطلق يا أبانا حيث أحببت، فقام فى الحال وأحرم بالحج وأصبح مسافرًا، ولما علم الجيران بعد ذلك أخذوا يدخلون على أهل بيته ويوبخونهم ويؤنبونهم كيف أذنوا له بالحج، وجعل أولاده يلومون تلك الفتاة الصغيرة ويقولون لها: لو سكت ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت:

إلهى وسيدى ومولاى عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم ولا تخجلنى معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلاد يصطاد، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فساقه القدر إلى بيت الرجل الصالح حاتم الأصم فقرع الباب فقالوا من أنت؟

قال: الأمير ببابكم يريد أن يشرب ماء من عندكم.

فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهى وسيدى سبحانك البارحة بتنا جياعا، واليوم يقف الأمير على بابنا ليشرب ماء من عندنا، ثم إنها أخذت كوزا جديدا وملأته ماء، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: أهذه الدار لأمير؟

فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم.

فقال الأمير: لقد سمعت به، وقال وزيره المرافق له: يا سيدى لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يترك لعياله شيئا، وعلمت أنهم بالأمس باتوا جياعا.

فقال الأمير: ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته[1] من وسطه مملوءة نقودا ورمى بها فى الدار، ثم قال لأصحابه: من أحبنى فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم وهى مملوءة نقودا. ثم انصرفوا.

فلما رأت الفتاة الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحى، فإن الله قد وسع علينا.

فقالت: يا أم. والله إنما بكائى كيف بتنا البارحة جياعا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين اللهم انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير. هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج محرمًا ولحق بالقوم توجع أمير الركب وأصيب بمرض، فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا، فقالوا: هل من عبد صالح؟ فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفى الأمير فى الحال فأمر له الأمير بهدايا عظيمة من دابة للركوب ومأكل ومشرب وملابس وغيرها فنام تلك الليلة مفكرا فى أمر عياله فقيل له فى منامه:

يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع استقبله أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به.

فعليكم بمعرفته والتوكل عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

(١) منطقته: المنطقة حزام يشد على الوسط وقد يوضع فيه نقود.

الفصل الرابع عشر

حـق الـجـــار

أمـور كثيرة فى حياتنا العصرية شـوهت المدنية النظرة إليها، وأطفأت شـعلة العواطف التـى كانت من قبل متأججـة نحوها. ومن هذه الأمور «حقوق الجـار على جاره» ولقد اهتم القـرآن والسـنة بحقوق الجار اهتمامـا عظيما، فالقرآن وضع حقوق الجـار مع حق الله وحق الوالدين والأرحام، والسنة أظهرت أن جبريل مازال يوصى النبى ﷺ بحقوق الجار حتى ظن النبى ﷺ أن الله سيجعل الجار وارثا من شدة التأكيد على حقوقه.

كما بينت السـنة أن الذى يقصر فى حق جاره أو يؤذيه يعتبر مرتكبًا كبيرة من الكبائر، وأن القيام بحق الجار واجب من الواجبات الشرعية الهامة.

وفـى مراعاة وصايا الإسـلام لحقوق الجار تنعقـد المودات، وتتوثق الروابـط الاجتماعية بين المسـلمين، وتتأكد ظاهرة من ظواهر التآلف والتراحم بين المؤمنين، ولذلك أمر الله تعالى بالإحسان للجار ذى القربى وللجار الجنب، كما أمر بالإحسان للوالدين ولذى القربى واليتامى والمساكين والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت الأيمان من أرقاء.

١- مراتب الجيران وحد الجيرة:

قال العلماء: الجيران ثلاثة:

- جار له حق واحد - وجار له حقان. - وجار له ثلاثة حقوق.

● فالجـار الـذى له ثلاثـة حقوق: هو الجار المسـلم ذو الرحم، فله حـق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.

● والجار الذى له حقان: هو الجار المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام.

● وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك [1].

أما حد الجوار فاختلف فيه:

فجاء عن على ﷺ «من سمع النداء فهو جار» ، وقيل من صلى معك صلاة الصبح فى المسجد فهو جار.

وعن عائشة - رضى الله عنها - «حق الجوار أربعون دارا من كل جانب» .

(١) السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ حسن أيوب.

وكلما كان الجار أقرب بابا كان أولى بالإحسان والإكرام، وروى البخارى عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله إن لى جارين فإلى أيهما أهدى؟

قال: «إلى أقربهما منك بابا» [1].

٢ - حق الجار تفصيلا:

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال:

«من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه.

- أتدرى ما حق الجوار؟

- إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بقُتَار [2] ريح قدرك إلا أن تغرف له منها، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرًا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده» [3].

- وقال الغزالى: وجملة حق الجار:

أن يبدأه بالسلام ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر السؤال عن حاله - لأن ذلك قد يحرجه - ويعوده فى المرض، ويعزيه فى المصيبة، ويقوم معه فى العزاء، ويهنئه فى الفرح، ويظهر الشركة فى السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه فى وضع الجذع على جداره، ولا يصب الماء أمام داره، ولا يضيق طريقه إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عيوبه وأخطائه، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاما، ويغض بصره عن حريمه، ولا يديم النظر إلى خصوصياته، ويتلطف مع أولاده فى الكلام، ويرشدهم إلى ما يجهلونه من أمور الدين [4].

٣ - جزاء من يؤذى جاره:

عن أبى هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال:

«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل من يا رسول الله؟

---

(١) المصدر السابق بتصرف.

(٢) القُتَار: دخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبخ أو الشواء.

(٣) رواه الخرائطى.

(٤) إحياء علوم الدين (٢/٢١٣).

قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه» [رواه البخارى ومسلم] وزاد أحمد. قالوا:
يا رسول الله وما بوائقه؟ قال شره.

– عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السوء، والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه» [رواه أحمد] .

– وعن أبى هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال له: «اذهب فاصبر، فأتاه مرتين أو ثلاثا، فقال له: اذهب فاطرح متاعك فى الطريق ففعل، فجعل الناس يمرون ويسألونه، فيخبرهم خبر جاره فجعلوا يلعنونه (فعل الله به وفعل) وبعضهم يدعو عليه، فجاء إليه جاره فقال: ارجع فإنك لن ترى منى شيئا تكره» [رواه أبو داود] .

وبذلك ندرك خطر إيذاء الجار وعظم شؤمه وسوء مآله، ولا ينجو من ذلك إلا القليل، فإن الغيبة والنميمة والسب واللعن والشتم أشد ماتكون بين الجيران سواء الجيران فى المسكن أم الجيران فى العمل، أم الجيران فى الدراسة، فكل إنسان يجاورك مدة طويلة كل يوم يعتبر جارًا لك، له عليك حقوق وواجبات ولك عليه مثل ذلك.

وإليك هذا الحديث الذى يبين أن إيذاء الجار يضاعف العذاب لأنه إيذاء وخيانة، وجحود، وتنكر لما يفعله الجار من أجل جاره، حيث إن جارك أول من يسمع صريخك، ويرى النار فى بيتك، ويشعر بما أنت فيه من ألم وعذاب، فيهرع إليك مبادرًا إلى مساعدتك فى ظلمة الليل، وبرد الشتاء وحر الصيف .. وهو الذى تطلب معونته فتجده بجوارك، وتطلب حاجته فيلبى مطالبك، وتترك زوجتك فى جواره وأنت آمن، وتدع مالك ومتاعك فى دارك ثم تغيب اعتمادا على أمانته، لذا كانت خيانته تساوى خيانة غير الجار عشر مرات.

وإليك نص الحديث:

عن المقداد بن الأسود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه:

«ما تقولون فى الزنا؟

قالوا: حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة. قال: فقال رسول الله ﷺ لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره.

قال: ما تقولون فى السرقة؟

قالوا حرمها الله ورسوله، فهى حرام، قال: لأنْ يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»[1] [رواه أحمد] .

(١) بتصرف من السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ حسن أيوب.

ومـع هذه الوصايا الإسـلامية نلاحظ كثـيرا من الناس يؤذون جيرانهـم، ولا يؤدون لهم حقوقهم، فكم من مزعجات صوتية تكاد تبعث الموتى من قبورهم يطلقها بعض الجيران غير مراعـين حقوق جيرانهم عليهـم، وربما يكون ذلك في وقت الراحـة والنوم، كالقيلولة بعد الغداء، ومن الليل حتى الصباح وكم من قمامات يرميها بعض الجيران على أبواب جيرانهم، وكـم يسـتعير بعض الناس المتاع مـن جيرانهم ثم لا يردونه، وكم ينظـر بعض الجيران إلى محارم جيرانهم بفضول قبيح، ونظرات مريبة، وكم من رجل فاضل هجر داره ليفارق جاره السوء، ويكف عن نفسه وأهله بوائقه.

إن جار السـوء من المصائب الكـبرى في الحياة الدنيا، وقد يصل السـوء ببعض الناس أن يتوسط لديه العقلاء لكف أذاه عن جيرانه، فلا يستجيب لهم، ويجدون أنفسهم لدى معالجته ونصحه كمن يحلب قرن الشاه أو يخاطب الأموات[1].

(١) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها/ عبد الرحمن حسن حنبكة.

الفصل الخامس عشر

الحكمة ومكارم الأخلاق

فـي القرآن الكريم ما يدل على أن الأخلاق الفاضلة والآداب الإسـلامية هى من أهم مظاهر الحكمة، فإن القرآن قد أطلق لفظ الحكمة على هذه الأخلاق والآداب فى عدة مواضع.

● فقد ذكر فى سـورة الإسـراء التعاليم الخلقية الأساسية فى موضع واحد، اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ إلى قوله: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[1]. وهى خمس عشـرة آية، فيها النهى عن الشـرك، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وخفض الجناح لهما وإيتاء ذى القربى، والمسـكين، وابن السـبيل والنهى عن التبذير، والأمر بالتلطف لهـم بالقول، والنهى عن الإفراط والتفريط، والنهى عن قتل الأولاد، وعن الزنا، وعن قتل النفس إلا بحقها، وعن الإسراف فى القصاص، والنهى عن أكل مال اليتيم إلا بالحق، والأمر بالإيفـاء بالعهد، وإيفاء الكيـل والميزان، والنهى عن التبختر والمرح الزائد، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية التى تلتقى عليها الأديان والأمم، والفطر السليمة المستقيمة، والعقول السليمة ختمها بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾[2].

● وكذلك شأن القرآن فى سورة لقمان، إلا إنها كانت نهاية فى سورة الإسراء، وكانت بداية فى سورة لقمان، فقال قبل أن يذكر تعاليم لقمان الخلقية، من نهى عن الشرك، ومعرفة الفضل للوالدين، وطاعتهما فى المعروف، واتباع سـبيل مـن أناب، ومراقبة الله فى كل صغير وكبير، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على المصائب، وعدم احتقار الناس، والخيلاء والكبرياء، والأمر بالاقتصاد فى كل شىء، والقصد فى المشى، والغض من الصوت.

اقـرأ قوله تعـالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾[4]

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ – ٣٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٩.

(٣) سورة لقمان الآية ١٣.

(٤) سورة لقمان الآية ١٩.

افتتح كل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

فدل على أن كل ما نطق به لقمان، وصد عنه من التعاليم الخلقية والوصايا الحكيمة، إنما نبعت عن هذه الحكمة التي أكرم الله بها لقمان، وخصه بها بين الأقران، ويرجع الفضل فيها إلى هذه الموهبة الربانية، والأخلاق الفاضلة التي فطر عليها وتخلق بها ووفق لها، لذلك قال في صلب هذه الوصية بعد ما ذكر إيتاء هذه الحكمة: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2].

● وكذلك كلمة (الحكمة) في سياق الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة الطيبة، ومن إنفاق الأموال في سبيل الله، ثم عدم اتباعه بالمن والأذى، والحث على القول بالمعروف والمغفرة، والتحرز من الرياء، والكفر بالله، والإشفاق من بطلان الصدقات وحبط الحسنات، والحرص على ابتغاء رضوان الله، وإصلاح النفس واستقامتها، والإنفاق من طيبات الأموال، وعدم تيمم الخبيث والنهي عن الخوف الشديد من الفقر، والاسترسال إلى الشيطان.

- اقرأ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

إلى قوله تعالى:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ختم كل ذلك بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4].

- فدل كل ذلك على أن الحكمة في اصطلاح القرآن وتعبيره لها صلة عميقة ووثيقة بالأخلاق، فإذا لم تكن أخلاق لم تكن حكمة، وإذا لم تكن حكمة لم تكن أخلاق، وإذا تقرر ذلك، فتعليم الأخلاق الفاضلة، وتهذيب النفوس وتزكية الأرواح لا يتم إلا بتصحيح العقائد والتطهر من دنس الشرك والجاهلية، والتحلي بالعلم الصحيح - يحتل مكانا كبيرًا في مهمة النبوة المقدسة، ويشكل مقصدًا كبيرًا من مقاصد البعثة الرئيسية، وقد دخل ذلك في تعليم الحكمة وفي التزكية[5].

---

(١) سورة لقمان الآية ١٢.

(٢) سورة لقمان الآية ١٢.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦١.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦١ - ٢٦٩.

(٥) لأبي الحسن الندوي في تقديمه لكتاب تهذيب الأخلاق/ عبد الحي الحسيني.

قطوف من الحكمة

● في مكارم الأخلاق:

– من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك.

– لا تسيء إلى من أحسن إليك، ولا تعن على من أنعم عليك.

– من أسرع في الجواب أخطأ في الصواب، من ركب العجل أدركه الزلل، ومن ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. من قلت فضائله ضعفت وسائله. من فعل ما شاء لقي ما ساء.

– من ساءت أخلاقه طاب فراقه ومن حسنت خصاله طاب وصاله.

– من ضاق خلقه مله أهله، ومن حلم ساد، ومن تفهم ازداد.

– من كظم غيظه فقد حلم ومن حلم فقد صبر ومن صبر فقد ظفر.

– كل امرئ يعرف بقوله ويوصف بفعله فقل سديدا وافعل حميدا.

– من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه، ومن غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه.

– من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه، إذا اصطنعت المعروف فاستره وإذا اصطنع إليك فانشره.

– أربعة تؤدى إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة.

● من جوامع الحكم:

– قيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباعدة، والكبر يوجب المقت، والتواضع يوجب الرفعة، والجود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والحزم يوجب السرور، والحذر يوجب السلامة، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، وبكثرة الصمت تكون الهيبة.

– حق يضر خير من باطل يسر، وكم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر، ومرهوب منه ينفع ولا يضر.

– إذا جهلت فاسأل، وإذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فاقلع.

– من صبر غنم، ومن سكت سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن أطاع هواه ضل، ومع العجلة الندامة ومع التأني السلامة.

– واختار العلماء أربع كلمات من أربعة كتب: فمن التوراة: من قنع شبع. ومن الإنجيل: من اعتزل نجا. ومن الزبور: من سكت علم. ومن القرآن: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [1]. واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات: لا تحمل بطنك ما لا تطيق، ولا تعمل عملا لا ينفعك، ولا تغتر بامرأة، ولا تثق بمال ولو كثر [2].

قصة وموعظة فى الحكمة

مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة، فأقام بها أياما.

فقال: هل بالمدينة أحد أدرك أحد من أصحاب النبى ﷺ؟

فقالوا له: أبو حازم فأرسل إليه. فلما دخل عليه قال له: «يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟».

قال أبو حازم: «يا أمير المؤمنين وأى جفاء رأيت منى؟».

قال: «أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى».

قال: «يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتنى قبل هذا اليوم، ولا أنا رأيتك».

قال: فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهرى، وقال: «أصاب الشيخ وأخطأت».

قال سليمان: «يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟».

قال: «لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب».

قال: أصبت يا أبا حازم فكيف القدوم غدا على الله؟

قال: «أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسىء فكالآبق يقدم على مولاه».

فبكى سليمان، وقال: «ليت شعرى ما لنا عند الله؟».

قال: «اعرض عملك على كتاب الله».

قال: «فى أى مكان أجده؟».

قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [3].

قال سليمان: «فأين رحمة الله يا أبا حازم؟».

قال أبو حازم: «إن رحمة الله قريب من المحسنين».

قال له سليمان: «يا أبا حازم فأى عباد الله أكرم؟».

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠١.

(٢) راجع المستطرف فى كل فن مستظرف فيه المزيد من الحكم صـ ٣٠.

(٣) سورة الإنفطار الآية ١٣ – ١٤.

قال: «أولو المروءة والنهى» .

قال له سليمان: «فأى الدعاء أسمع؟» .

قال أبو حازم: «دعاء المحسن للمحسن» .

قال له سليمان: «فأى الصدقة أفضل» .

قال: «للسائل البائس، وجهد المقل، ليس فيها من ولا أذى» .

قال له سليمان: «فأى القول أعدل؟» .

قال: «قول الحق عند من تخافه أو ترجوه» .

قال له سليمان: «فأى المؤمنين أكيس؟» .

قال: «رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها» .

قال له سليمان: فأى المؤمنين أحمق؟» .

قال: «رجل انحط فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره» .

قال له سليمان: «أصبت» فما تقول فيما نحن فيه؟

قال: «يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضا لهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقد ارتحلوا عنها، فلو شعرت ما قالوا وما قيل لهم» فقال له رجل من القوم: بئس ما قلت يا أبا حازم.

قال أبو حازم: «كذبت إن الله أخذ الميثاق على العلماء لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه» .

قال له سليمان: «فكيف لنا أن نصلح؟» .

قال: «تدعون الصلف[1] وتمسكون بالمروءة، وتقسمون بالسوية» .

قال له سليمان: «كيف لنا بالمأخذ به؟» .

قال أبو حازم: «تأخذه من حله وتضعه فى أهله» .

قال سليمان له: «هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟» .

قال: «أعوذ بالله» قال له سليمان: «ولم ذلك؟» .

قال: «أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات» .

قال له سليمان: «ارفع إلينا حوائجك» .

قال: «تنجينى من النار وتدخلنى الجنة؟» .

قال سليمان: ليس ذاك إلى.

قال أبو حازم: فمالى إليك حاجة غيرها.

---

(١) الصلف: التكبر والتفاخر.

قال له سليمان: «فادع الله لى» .

قال أبو حازم: «اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيرى الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى» .

قال له سليمان: أوصنى.

قال: سأوصيك وأوجز: «عظم ربك، ونزهه أن يراك حيث نهاك. أو يفقدك حيث أمرك»[1] .

***

(١) بتصرف من موسوعة نضرة النعيم جـ ١ صـ ١٧٠٣.

الفصل السادس عشر

الحيـــاء

١- أنواع الحياء:

الحياء قسمان: غريزى ومكتسب، والحياء المكتسب هو الذى جعله الشارع من الإيمان، وهو المكلف به دون الغريزى.

وقد كان رسول الله ﷺ قد جمع له النوعان، فكان صلى الله عليه وسلم فى الغريزى أشد حياء من العذراء فى خدرها، وكان فى المكتسب فى الذروة العليا.

وقال المناوى: الحياء نوعان: نفسانى: وهو المخلوق فى النفوس كلها كالحياء من كشف العورة والجماع بين الناس، وإيمانى: وهو أن يمتنع المسلم عن فعل المحرم خوفا من الله.

قال ابن القيم: الحياء ينقسم إلى عشرة أوجه:

- حياء جناية: ومنه حياء آدم عليه السلام لما فر هاربًا فى الجنة قال الله تعالى له: «أفرارا منى يا آدم؟» قال: لا يارب. بل حياء منك.

- حيـاء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

- حياء الإجلال: وهو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

- حيـاء الكرم: كحياء النبى ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطولوا الجلوس عنده، فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا.

- حياء الحشمة: كحياء على بن أبى طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذى لمكان ابنته منه.

- حياء الاستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه - عز وجل - حين يسأله حوائجه، احتقارا لشأن نفسه واستصغارا لها، وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثانى: استعظام مسئوله (وهو المولى عز وجل).

- حيـاء المحبة: وهو حيـاء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه فى غيبته هاج الحياء من قلبه وأحس به فى وجهه ولا يدرى ما سببه.

- حيـاء العبودية: وهو حيـاء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استيحاءه منه لا محالة.

– حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء أو إحسان، فإنه يستحى مع بذله حياء شرف وعزة.

– حياء المرء من نفسه: وهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون. فيجد نفسه مستحيا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحيى بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحى من غيره أجدر[1].

٢ - فضيلة الحياء.

إذا تخلق الإنسان بالحياء سارع إلى مكارم الأخلاق، ونأى عن رذائل الصفات، وكان سلوكه سلوكا نظيفا مهذبًا فلا يكذب فى القول، ولا تطاوعه نفسه فى اقتراف الآثام، والحياء بهذا المعنى، هو الذى عناه الرسول ﷺ وهو يحض صحابته على التمسك به بقوله «استحيوا من الله حق الحياء» .

قالوا: يا نبى الله إننا لنستحيى والحمد لله.

قال: «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء:

أن تحفظ الرأس وما وعى.

وتحفظ البطن وما حوى.

وتذكر الموت والبلى.

ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» .

[رواه الترمذى]

فالحديث يشير إلى أن الحياء ليس هو التغير والانكسار الذى يعترى الإنسان من خوف ما يذم عليه، ولكن الحياء يتمثل فى أمور:

(أ) حفظ الحواس من السمع والبصر واللسان من أن تأتى منكرا أو تفعل ما تذم عليه.

(ب) حفظ البطن من الشراهة وحفظها من أكل ما حرم الله، وحفظ الفرج من الزنا والرفث.

(جـ) ترك ما حرم الله من زينة الدنيا.

فهذا هو الحياء الكامل الذى يريده الله للناس.

والإنسان إذا تحلى به يبلغ نهاية الكمال، وإذا تخلى عنه سارع إلى الشر واسترسل فيه فلا يبالى حينئذ بالشتم والصخب والكذب، ولا بارتكاب أى محظور، مصداق ذلك الحديث الشريف: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» [رواه البخارى ومسلم] .

(١) بتصريف من مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٧٢) .

٣ - الحياء أصل لكل الخير:

قال ابن القيم – رحمه الله – خلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم، كما أنه ليس معه من الخير شـيء، ولولا هذا الخلق لم يُقَرْ الضيف، ولم يوف بالعهد، ولم تؤد الأمانة، ولم تقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع عن فاحشة.

ذلك أن المسـلم عفيف حيى، والحياء خلق له، والحياء من الإيمان، والإيمان عقيدة المسلم وقوام حياته، يقول الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [رواه سلم].

ويقول: «الحياء والإيمان قرناء جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» [رواه الحاكم].

وسـر كون الحياء من الإيمان أن كلا منهما داع إلى الخير صارف عن الشر، فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصى، والحياء يمنع صاحبه من التقصير فى الشكر للمنعم، ومـن التفريط فى حق ذى الحق، كما يمنع الحيى من فعل القبيح أو قوله اتقاء للذم والملامة، ومن هنا كان الحياء خيرًا، ولا يأتى إلا بالخير، كما صح فى الحديث الذى رواه البخارى عن رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتى إلا بخير» وقوله فى رواية مسلم: «الحياء خير كله» ونقيض الحياء البذاءة، والبذاءة فحش فى القول والفعل وجفاء فى الكلام، والمسـلم لا يكون فاحشـا ولا متفحشا، ولا غليظا ولا جافيا، إذ هذه صفات أهل النار، والمسلم من أهل الجنة – إن شاء الله – فلا يكون من أخلاقه البذاءة ولا الجفاء، وشـاهد هذا قول رسـول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان والإيمان فى الجنة والبذاءة من الجفاء والجفاء فى النار» [رواه مسلم].

٤ - الحياء والأمر بالمعروف:

الحياء الحقيقى لا يمنع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

قال صاحب «فضل الله الصمد»: «فإن قيل: إن صاحب الحياء قد يسـتحيى أن يواجه بالحق فيترك الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف فى العادة، فأقول: إن ذلك ليس بحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما أطلقوا عليه حياء تشبيها ومجازًا».

وخلق الحياء فى المسلم غير مانع له أن يقول حقا أو يطلب علما أو يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، فقد شفع مرة عند رسول الله ﷺ أسامة بن زيد – حِب رسول الله وابن حِبه – فلم يمنع

الحياء رسول الله ﷺ أن يقول لأسامة فى غضب: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟! والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» [رواه البخارى].

ولم يمنع الحياء أم سليم الأنصارية أن تقول: يا رسول الله إن الله لا يستحيى من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت؟.

فيقول لها الرسول ﷺ – ولم يمنعه الحياء – «نعم إذا رأت الماء» [رواه البخارى].

وفى البخارى أيضا عن عائشة أنها قالت: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين».

وخطب عمر مرة فعرض لغلاء المهور ومنع الغلو فيها فقالت له امرأة: أيعطينا الله وتمنعنا يا عمر، ألم يقل الله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ (١).

فلم يمنعها الحياء أن تدافع عن حق نسائها، ولم يمنع عمر أن يقول معتذرا: كل الناس أفقه منك يا عمر(٢).

٥ - الإعراض عن الحياء:

يقول الشيخ سيد سابق:

«ولقد كان من نتائج الإعراض عن هذه التعاليم أن تفشى فى المجتمع الاستهتار بالقيم الرفيعة، والاستهانة بالتقاليد الحسنة، والتجرد من الفضائل الموروثة. وانتشرت الرذائل، وأخذت طريقها فى إفساد القلوب والعقول. فمن مناظر التبرج، وعرض مفاتن الجسد، إلى أغانٍ رخيصة، مبتذلة إلى كتب جنسية مثيرة، إلى قصص عابث، إلى صور فاضحة تنتشر فى الصحف والمجلات، إلى أفلام سينمائية خليعة تغرى بالفسق والفجور إلى كثير من أمثال هذه النقائص التى تسلب الإنسان الحياء، وتزين له الشر وتغمسه فى الشهوات والآثام».

فيجب على الآباء والمربين أن يأخذوا أبناءهم بهذا الخلق – الحياء – ويرشدوهم إلى ما ينبغى فعله، وما ينبغى تركه من الأقوال والأفعال.

وعليهم أن يتخيروا لهم الأصحاب والأصدقاء من ذوى الأخلاق الحسنة، ويجنبوهم رفقاء السوء، ومخالطة التافهين والسفلة من الناس، وانتقاء الكتب الصالحة واختيار القصص التى لها تأثير خاص فى التوجيه الحسن، الذى له شأنه فى اكتساب هذا الخلق الكريم.

وبمثل هذه الأساليب ينشأ الأبناء النشأة التى تجعل منهم أفرادًا صالحين للحياة، وعاملين للخير والنجاح.

---

(١) سورة النساء الآية ٢٠.

(٢) انظر منهاج المسلم/ أبو بكر الجزائرى.

ومما تجب ملاحظته:

أن على المربى أن يكون حكيما، فلا يبالغ فى أخذ الناشئين بهذا الخلق حتى لا يصل إلى حد الخجل، فإن ذلك مفضٍ إلى ضعف الشخصية، وصرف الناس عن ارتياد معالى الأمور، واقتحام المشاق، والجرأة فى الحق.

وبهذه التربية الحكيمة تصل النفس إلى أسمى ما فيها من سمو[1].

٦ - حياء موسى عليه السلام:

جاء فى وصف موسى عليه السلام أنه كان حييًا ستِّيرا، فكان يستر بدنه، ويستحيى أن يظهر مما تحت الثياب شيئا حتى مما ليس بعورة، وبسبب تستره الزائد آذاه بعض بنى إسرائيل بألسنتهم، فقالوا: ما يبالغ فى ستر نفسه إلا من عيب فى جسمه، أو من أدرة [2] هو مصاب بها.

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن موسى كان رجلًا حييًا ستيرًا، لا يرى شيئا من جلده استحياء، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا التستر إلا من عيب أو أدرة، وإن الله أراد أن يبرئه، فخلا يوما وحده ليغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فجمح موسى فى آثره يقول: ثوبى يا حجر، ثوبى يا حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله، وقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضربًا، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا» .

قصة موسى مع ابنتى شعيب:

... إن موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليها رعاء يسقون ووجد من دونهم جاريتين تذودان، فسألهما فقالتا: لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، فقال: رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن، فسأل ربه ولم يسأل الناس. فلم يفطن الرعاء وفطنت الجاريتان، فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله، فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام: هذا الرجل جائع فقال لإحداهما اذهبى فادعيه، فلما أتته عظمته وغطت وجهها وقالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فشق على موسى حين ذكرت أجر ما سقيت لنا، ولم يجد بدًا من أن يتبعها، لأنه كان بين الجبال جائعًا مستوحشًا، فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف

(١) بتصريف من كتاب إسلامنا/ السيد سابق ص ١٣٨.

(٢) الأدرة: هى انتفاخ فى الخصية بسبب فتق.

لـه عجيزتها، وكانت ذات عجز، وجعل موسى يعرض مرة، ويغض مرة، فلما عيل صبره ناداها: يا أمة الله كوني خلفي، وأريني السمت[1] بقولك ذا، فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيأ، فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعش.

فقال له موسى: أعوذ بالله.

فقال له شعيب: لم، أما أنت جائع؟

قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا عما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئًا من ديننا بملء الأرض ذهبا.

فقال له شعيب: يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقرى الضيف ونطعم الطعام، فجلس موسى فأكل.....[2]. وبقية القصة يحكيها القرآن الكريم: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[3].

٧ - حياء محمد صلى الله عليه وسلم:

وقد كان الرسول ﷺ شديد الحياء، أشد حياء من العذراء في خدرها. روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه».

عن أنس ﷺ قال: «بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون» فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعوه، فقال: «فارفعوا طعامكم». وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله» فقالت: وعليكم السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك، فتقرى[4] حجرة نسائه كلهن، يقول لهم كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون وكان النبي ﷺ شديد الحياء فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا

---

(١) السمت: الطريق.

(٢) أخرجه الدارمي (١/١٢٥).

(٣) سورة القصص الآية ٢٦ - ٢٧.

(٤) تقرى: تتبع الحجرات واحدة واحدة.

وضع رجله فى أسكُفَّة[1] الباب داخلة وأخرى خارجة ارخى الستر بينى وبينه، وأنزلت آية الحجاب» [رواه البخارى].

وعن عائشـــة – رضى الله عنها – قالت: إن امرأة من الأنصار قالت للنبى ﷺ كيف أغتسـل من المحيض؟

قال: خذى فرصة مُمَسَّكَة» – بها شىء من مسك» – فتوضئى ثلاثا، ثم إن النبى ﷺ استحيا فأعرض بوجهه، أو قال «توضئى بها» فأخذتها فأخبرتها بما يريد النبى ﷺ» [رواه البخارى].

ومن شـدة حيائه صلى الله عليه وسـلم كان لا يرى من زوجاته عوراتهن الكبرى، ولا يكشف أمامهن عورته، وفى هذا قالت السيدة عائشة – رضى الله عنها – «ما رأيت منه ولا رأى منى».

(١) أسكاف الباب: عتبه.

الفصل السابع عشر

صلة الرحم

١ - التعريف:

صلة الرحم لغة:

الصلة ضد الهجران، والتواصل ضد التراحم، واتصل الشيء بالشيء لم ينقطع.

والرحم في اللغة: اسم يدل على الرقة والعطف والرحمة، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضا، والرحمن والرحيم أسمان مشتقان من الرحمة.

صلة الرحم اصطلاحاً:

قال النووي: صلة الرحم هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال وتارة بالخدمة، وتارة بالزيارة والسلام وغير ذلك.

وقال ابن منظور: هي كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوى النسب والأصهار، والعطف عليهم، والرفق بهم، والرعاية لأحوالهم،وكذلك إن بعدوا أو أساءوا [١].

٢ - حكم الصلة ودرجاتها:

قال القاضي عياض: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة، والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك بالقدرة والحاجة، فمنها واجب ومنها مستحب، فلو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لايسمى قاطعا، ولو قصر عما يقدر عليه ومطلوب منه لايسمى واصلاً [٢].

٣ - معنى الصلة ومعنى القطيعة:

المعنى الجامع للصلة: هو إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر حسب الطاقة.

ومعنى قطيعة الرحم - كما قال الزين العراقي - : هو الإساءة إلى الرحم، وقال غيره: تكون القطيعة بترك الإحسان، لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة، فلا واسطة بينهما، والصلة نوع من الإحسان والقطيعة ضدها وهي ترك الإحسان.

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور، ومسلم بشرح النووي.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١١٣) .

بم تكون الصلة؟

تكون الصلة بزيارتهم، وتفقد أحوالهم، وإكرامهم، والإهداء إليهم، والتصدق على فقيرهم باعتباره أحق من الفقير البعيد، وتكون بتعهد مرضاهم، ومشاركتهم فى مسراتهم ومواساتهم فى أحزانهم، وتقديمهم على غيرهم فى كل أمر هم أحق به من غيرهم بسبب قرابتهم، وتكون أيضاً بسداد الدين أو المساعدة فى سداده وإغاثة اللهفان... إلخ

أما قطيعتهم فتكون بهجرهم، والإعراض عن زيارتهم المستطاعة وعدم مشاركتهم فى مسراتهم، وعدم مواساتهم فى أحزانهم، وتكون بتفضيل غيرهم عليهم فى الصلات والعطاءات الخاصة التى هم أحق بها من غيرهم.

هذا... وصلة الرحم وقطيعتها ثلاث درجات:

(أ) واصل: وهو الذى يصل من قطعه، ويعطى من منعه.

(ب) مكافئ: وهو الذى يصل من وصله، ويقطع من قطعه.

(جـ) قاطع: وهو الذى لايصل ولا يوصل، ولايعطى ولا يأخذ، وأشد منه من يصله غيره وهو يقاطعه، ويعطيه غيره وهو يمنعه.

٤ - فضل صلة الرَحم وثوابها:

صلة الرحم مما يكافئ الله عليه فى الدنيا ببسط الرزق وإطالة العمر، وهذا ثواب معجل يتسابق عليه معظم الناس، وهو زائد على ثواب الآخرة الذى ادخره الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات فى جنة عرضها السموات والأرض.

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره، فليصل رحمه» .

ينسأ: أى يؤخر، والمراد من الأثر: الأجل والعمر:

روى البخارى ومسلم - أيضاً - عن أبى أيوب الأنصارى أن رجلاً قال:

يارسول الله أخبرنى عن عمل يدخلنى الجنة؟

فقال النبى ﷺ : «تعبد الله ولاتشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم» .

وعن عائشة - رضى الله عنها - عن النبى ﷺ قال: «الرحم متعلقة بالعرش تقول: من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله» [رواه مسلم] .

وعن سلمان بن عامر ﷺ عن النبى ﷺ قال:

«الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان. صدقة وصلة [رواه الترمذى] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال:

«ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها» [رواه البخارى].

وعن أبى هريرة ﷺ أن رجلا قال: «يارسول الله: إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن إليهم ويسيئون إلى، وأحلم عليهم ويجهلون على، فقال: إن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ[1] ولايزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك» [رواه مسلم].

٥ - جزاء قطيعة الرحم:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[2].

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك [3] من القطيعة قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك، ثم قال رسول الله ﷺ اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[4] [رواه البخارى].

وعن جبير بن مطعم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لايدخل الجنة قاطع رحم».

[رواه البخارى ومسلم]

وعن أبى بكر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع مايدخره له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم» [رواه ابن ماجة].

***

(١) المل: الرماد الحار.

(٢) سورة الرعد الآية ٢٥.

(٣) العائذ بك: المستجير بك.

(٤) سورة محمد الآيات ٢٢ – ٢٣.

الفصل الثامن عشر

العدل

١ - فضيلة العدل:

يحرص الإسلام أشد الحرص على المحافظة على حقوق الإنسان، ودمائهم وأعراضهم، وأموالهم. كما يعنى أشد العناية بصيانة حرياتهم وكراماتهم، ويتخذ لذلك جميع الوسائل التى تحفظ هذه الحقوق ومن هذه الوسائل إقامة الحق، والعدل بين الناس، ذلك أن إقامة الحق، والعدل هى التى تشيع الطمأنينة، وتنشر الأمن، وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوى الثقة بين الحاكم والمحكوم وتنمى الثروة، وتزيد فى الرخاء، وتدعم الأوضاع فلا تتعرض لخلخلة، أو اضطراب، ويمضى كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته فى العمل، والإنتاج، وخدمة البلاد، دون أن يقف فى طريقه مايعطل نشاطه، أو يعوقه عن النهوض.

وقد جاءت الآيات والأحاديث داعية إلى العدل، ومحذرة من الظلم، ومحرمة له.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل فى كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾(١).

وأمر بالعدل حتى مع الأعداء: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وأمر بالعدل بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلى المسلمين قال تعالى: ﴿ وَإِن حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - عز وجل - وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا» [رواه مسلم].

والله سبحانه وتعالى من أسمائه العدل. وما أنزل كتبه، ولا أرسل رسله، ولا كلف الناس بالشرائع، إلا لأجل إقامة الحق والعدل.

---

(١) سورة النساء الآية ٥٨.

(٢) سورة المائدة الآية ٨.

(٣) سورة المائدة الآية ٤٢ - ٤٨.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١).

وبالعدل قامت السماوات والأرض.

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢).

وإقامة العدل إحدى وظائف رسول الله ﷺ التى كلف بها.

﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٣).

والعدل ميزان الله تعالى فى الأرض الذى يأخذ به للضعيف من القوى وللمحق من المبطل.

كما أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل الأزمنة ثوابا أيام العدل، ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان، وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته.

وسأل الاسكندر حكماء أهل بابل أيهما أبلغ عندكم: الشجاعة أو العدل؟

فقالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة، ومن كلام كسرى: لاملك إلا بالجند، ولاجند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولابلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل (٤).

٢ - دعوة الإسلام إلى العدل والمساواة:

قال عليه الصلاة والسلام:

- لايقضين حكم بين اثنين وهو غضبان [اللؤلؤ والمرجان ٢/ ٢٢٦] .

- ما من عبد استرعاه الله رعيته فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة [اللؤلؤ والمرجان ١/ ٣٠]

- انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا إن تفضله بتقوى الله [كنز العمال ٢/ ٢٢] .

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٢) سورة الرحمن الآيات ٧ - ٩.

(٣) سورة الشورى الآية ١٥.

(٤) انظر المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى.

– المسلمون تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم [1] أدناهم، وهم يد على من سواهم .

[البيان والتبيان ٢/ ١٩]

– من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادَّ الله عز وجل.

– من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل .

[الإحياء ٢/ ٤٤]

– من ظلم مجاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة.

– من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظه وإشارته ومقعده ومجلسه.

[الجامع الصغير ٢/ ٣٣٧]

– اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنه ليس دونه حجاب [كنز العمال ٢/ ٢٢] .

– الناس كلهم سواء كأسنان المشط [البيان والتبيان ٢/ ١٩] .

من مظاهر عدله ﷺ

استقى النبى ﷺ العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية، وكانت فطرته السليمة مهيأة للعدل منذ شبابه، وإليك بعض الشواهد على عدله ﷺ.

– شكت إليه ابنته فاطمة ماتلقى من مشقات فى أعمالها بمنزلها، وطلبت منه خادماً من السبى يكفيها مئونة العمل، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير.

وقال لها: لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع.

فآثر عليها فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون بسقيفة المسجد وليس لهم مرتزق [2] .

– سرقت امرأة مخزومية، فأحزن قريشاً شأنها، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه؟

فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع فى حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب وجاء فى خطبته قوله: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» .

[رواه البخارى ومسلم]

المجالات التى يدخل فيها العدل

وللعدل مجالات متعددة. نجملها فيما يلى:

---

(١) الذمة: الأمان.

(٢) شرح الزرقانى (٤ / ٣٠٢) .

(أ) العدل فى الحكم:

عدل الحاكم بين رعاياه، وحبه لشعبه وإخلاصه له، وحنوه عليه، من شأنه أن يوثق الصلة بين الحاكم والمحكوم، ويربط بينهما برباط موثق لاتنفصم عروته، ولاتهن قوته، فتشيع الطمأنينة، وتستقر الأوضاع، ويمضى كل إلى غايته.

فبينما الحاكم يعمل دائباً على إصلاح أمته، والنهوض بها إذ المحكوم يتجاوب معه، ويضطلع بعبء الإصلاح عن رضا واختيار، وقد أظل الجميع ألوية الأمن والسلام.

روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله تعالى، وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر».

والمثل الأعلى للحاكم، ماجاء فى وصف الحسن البصرى له، وهو يبعث برسالة إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز. قال:

اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله، الذى يرتاد لها أطيب المرعى، ويزودها عن مواقع الهلكة، ويحميها من السباع. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأب الحفى على ولده، يسعى لهم، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة، الرفيقة بولدها، حملته كرها ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين، يربى صغيرهم ويمون كبيرهم.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله، ويريهم وينقاد إلى الله، ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله، كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله فبدد المال، وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله [1].

(ب) العدل فى القضاء:

والعدل واجب على القاضى حتى يأخذ كل ذى حق حقه، وإلا اختل النظام وأهدرت الدماء والأعراض والأموال، وضاع المظلوم دون أن يجد من ينصفه.

(١) بتصرف من كتاب عناصر القوة فى الإسلام/ السيد سابق.

قال الشافعي: (ينبغي للقاضي أن يسوى بين الخصمين في خمسة أشياء) :

- في الدخول عليه.
- والجلوس بين يديه.
- والإقبال عليهما.
- والاستماع لهما.
- والحكم عليهما.

وحاصل الأمر فيه: أن يكون مقصود القاضي بحكمه الفصل بين الحكماء بإعطاء كل ذي حق حقه وبإلزام الذي عليه الحق بأن يدفعه إلى مستحقه.

وفي الحديث يقول الرسول ﷺ : «القضاة ثلاثة، واحد في الجنة واثنان في النار ، أما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى الناس على جهل فهو في النار» [رواه أبو داود] .

(جـ) وجوب العدل بين الزوجات:

أباح الله تعدد الزوجات وقصره على أربع، وأوجب العدل بينهن في الطعام والسكن والكسوة والمبيت، وسائر ماهو مادي، من غير تفرقة بين غنية وفقيرة وعظيمة وحقيرة، فإن خاف الرجل الجور وعدم الوفاء بحقوقهن جميعا، حرم عليه التعدد، قال تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾[1]. أي أقرب ألا تجوروا.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل) .

ولا تعارض بين ما أوجبه الله من العدل في هذه الآية، وبين مانفاه في الآية الأخرى، وهي: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾[2].

فإن العدل المطلوب: هو العدل الظاهر المقدور عليه، وليس هو العدل في المودة والمحبة، فإن ذلك لايستطيعه أحد، وقد كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه، فيعدل، ويقول :

«اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» .

---

(١) سورة النساء الآية ٣.

(٢) سورة النساء الآية ١٢٩.

(د) العدل بين الأولاد:

وقد أوجب الإسلام العدل بين الأولاد، ونهى عن التفضيل بينهم في الملك والهبة، لأن تفضيل بعضهم على بعض يفضي إلى العقوق، ويفسد ذات البين، ويقطع الصلات التي أمر الله بها أن توصل.

فعن النعمان بن بشير: أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاما كان لي، فقال النبي ﷺ: أكل ولدك نحلت مثل هذا؟ فقال: لا. فقال الرسول ﷺ فأرجعه.

[رواه البخاري].

وفي رواية لمسلم أنه قال: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

وهذا المنع إذا لم يكن هناك عذر يبيح التفضيل، فإن كان ثمة عذر يبيحه فلا مانع. فإذا فضل الأب ذا الحاجة على الغني، وذا العاهة على السليم، أو الطائع على العاصي، أو البار على العاق، فإن ذلك جائز شرعا. وقد سبق توضيح هذه المسألة.

(هـ) العدل في القول والشهادة والكتابة:

والعدل واجب في القول والكتابة، بمعنى أن يقول، ويكتب الإنسان الحق، ولايعدل عن الصدق إلى غيره:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[1].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[2].

- ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾[3].

(و) العدل بين المتخاصمين:

وإذا وقع خلاف أو خصام بين طوائف المسلمين أدى إلى القتال، وجب على طائفة محايدة من المسلمين أن تتدخل لحسم هذا النزاع، والصلح بينهما على أساس الحق والعدل:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٢.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٢.
(٣) سورة الطلاق الآية ٢.
(٤) سورة الحجرات الآية ٩.

(ز) العدل مع الأعداء:

والعدل يجب أن يكون بين الناس جميعا، من غير تفرقة بين قوى وضعيف، ولا بين مسلم وغير مسلم، ولابين عربى وعجمى، ولابين صديق وعدو... إلخ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١).

(ح) الكيل والميزان:

ويكون العدل فى الكيل والوزن بأن يكيل ذو الكيل ويزن ذو الوزن بالقسطاس المستقيم، وبما يساوى الحق الذى تم عليه التراضى، ولأهمية هذا جعل الميزان رمزاً لإقامة العدل.

أثر العدل فى المساواة

جاء الإسلام والناس طبقات، والعرب درجات، فسوى بينهم مساواة حقيقية واقعية لم يعرف العالم مثلها من قبل ولا من بعد، فلا عبرة بالحسب ولا بالمال ولا بالجاه ولا باللون، بل العبرة بالأخلاق الفضلى وبالتدين الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟

قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب (٣).

وقال - أيضا - : «قد أذهب الله عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء: مؤمن تقى، وفاجر شقى، والناس بنو آدم، وآدم من تراب» [رواه أبو داود].

وقد كان العدل من أقوى البواعث على هذه المساواة.

* * *

(١) سورة النساء الآية ١٣٥.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٣) كنز العمال (٣/ ٢٢) .

الفصل التاسع عشر

العفو والصفح

١- العفو فى القرآن الكريم:

قال ابن الجوزى: ذكر أهل التفسير العفو فى القرآن الكريم على أربعة أوجه:

أحدها: الصفح والمغفرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[١].

والثانى: الترك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[٢].

والثالث: الفاضل من المال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[٣].

والرابع: الكثرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا﴾[٤].

الفرق بين العفو والصفح:

الصفح والعفو متقاربان فى المعنى فيقال: صفحت عنه أى أعرضت عن ذنبه إلا إن الصفح أبلغ من العفو. فقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وصفحت عنه: أوليته صفحة جميلة[٥].

٢- فضيلة الصفح:

قد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٨].

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كان فى الثالثة، قال: «اعفوا عنه فى كل يوم سبعين مرة» [رواه أبو داود].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٧.

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٩.

(٤) سورة الأعراف الآية ٩٥.

(٥) بصائر ذوى التمييز (٣ / ٤٢١).

(٦) سورة الحجر الآية ٨٥.

(٧) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(٨) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت: قلت يارسول الله، أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر. ما أقول فيها؟

قال : «قولى اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى» [رواه الترمذى] .

وقال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد، من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) .

وقال على ﷺ أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.

وقال أيضاً: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه، وقال ﷺ: أقيلوا ذوى المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه.

٣ - العفو خلق الرسول ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢).

قال القرطبى: هذه الآية من ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات. فقوله: «خذ العفو» دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين.

وقوله «وأمر بالعرف» صلة الأرحام، وتقوى الله فى الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وقوله: «وأعرض عن الجاهلين» الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

وقال القرطبى: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم – قال جابر بن سليم: ركبت قعودى ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودى بباب المسجد، فدلونى على رسول الله ﷺ ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر، فقلت: السلام عليك يارسول الله. فقال: «وعليك السلام». فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلمنى كلمات ينفعنى الله بها. قال: «ادن» ثلاثا، فدنوت فقال: «أعد على» فأعدت عليه فقال: «اتق الله ولاتحقرن من المعروف شيئا وأن تلق الله بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى وإن امرؤ سبك بما لايعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجراً وعليه وزرا، ولاتسبن شيئا مما خولك الله تعالى» .

قال أبو جُرَىّ: فوالذى نفسى بيده ماسببت بعده شاة ولا بعيراً. [أخرجه أبو بكر البزار] .

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٠.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

وفى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ خطاب من الله تعالى لنبينا عليه السلام، ثم إنه تأديب لجميع خلقه.

روى البخاوى عن عبد الله بن عباس قال: قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر ابن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً.

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لى عليه؟

قال سأستأذن لك عليه، فاستأذن لعيينة، فلما دخل قال يا ابن الخطاب، والله ماتعطينا الجزل [1] ولاتحكم بيننا بالعدل.

قال: فغضب عمر حتى هم بأن يقع به.

فقال الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، فوالله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه حتى عفا عنه وكان وقافا عند كتاب الله [2].

(١) الجزل: الكثير من الشيء.

(٢) انظر تفسير القرطبى جـ ٧ صـ ٣٤٥.

الفصل العشرون

القناعة

١- فضيلة القناعة:

إن من أجلّ مواهب الله لعباده وأعظمها أثرا القناعة، فليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بما عند الله، والقناعة بالقليل. ولو لم يكن فى القناعة خصلة تحمد إلا الراحة وعدم الدخول فى مواضع السوء لطلب المزيد والكثير لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على أى حال من الأحوال.

وإن من حرم القناعة لم يزده المال غنى، فتمتع المرء بالمال القليل مع قلة الهم أهنأ من المال الكثير المحمل بالأوزار والتبعات وحقوق العباد، وربما جره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب الآثام المنافية للمروءات، وقد جبل بنو آدم على الحرص والطمع وقلة القناعة، قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له ثان ولو كان له الثانى لأحب أن يكون له ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. ويتوب الله على من تاب». [أخرجه أحمد].

وقال أيضاً: «منهومان لايشبعان منهوم العلم ومنهوم المال» [رواه الطبرانى].

ولما كان الجشع والطمع [عافاك الله] من أقبح الخلائق وأعظم الآفات الدينية وأكره الخصال الذميمة التى لايزال صاحبها - أبدا - مذموما، فقد أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس» [رواه البخارى].

ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب فقال: «أيها الناس أجملوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ماكتب له من الدنيا وهى راغمة». [أخرجه الحاكم]

وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال: أى عبادك أغنى؟ قال أقنعهم.

قال: فأيهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه.

ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصارى: أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال: يارسول الله، عظنى وأوجز فقال: «إذا صليت فصل صلاة مودع، ولاتحدثن بحديث تعتذر منه غدا، واجمع اليأس مما فى أيدى الناس» [رواه ابن ماجة].

وقال عمر رضي الله عنه: «إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، إنه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم».

وقال ابن مسعود ﷺ: «مامن يوم إلا وملك ينادى: يابن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غما الحسود، وأهنأهم عيشا القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط».

٢ - الأسباب المؤدية إلى القناعة:

ينبغى أن نعلم أن الأسباب أو الوسائل المؤدية إلى اكتساب صفة القناعة والتخلى عن الطمع كثيرة ومهمة: فمنها الاقتصاد فى المعيشة، ومنها ألا ينشغل بالمستقبل، ومنها أن يعرف عز القناعة وذل الطمع، ومنها التأمل فى تنعم المترفين من الأغنياء، وزهد الأنبياء، وآخرها علمه بما فى المال من الخطر ومافى الإقلال منه من الأمان وراحة البال.

وقد أفاض الإمام الغزالى فى الكلام على هذه الأسباب وإليك خلاصة ما قال:

الأول: وهو الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الإنفاق، فمن أراد عز القناعة فينبغى له أن يبعد نفسه عن الحرص والطمع وطول الأمل ويرد نفسه إلى مالابد منه ويوطن نفسه عليه. قال رسول الله ﷺ: «ثلاث منجيات خشية الله فى السر والعلانية، والقصد فى الغنى والفقر، والعدل فى الرضا والغضب» [البيهقى].

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - قال النبى ﷺ: «الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة» [أخرجه أبو داود] فالاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الإنفاق من أهم الأمور.

الثانى: أنه إذا تيسر له فى الحال مايكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد القلق لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد سيأتيه، وينبغى له أن يعلم أن شدة الحرص ليست هى السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغى أن يكون واثقا بوعد الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1] وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويوسوس له أنه إذا لم تحرص وتجمع وتدخر فربما تعجز وتضعف ويتشرد أولادك وأهلك من بعدك.. فلا يزال طول الأمل يتعبه فى الطلب خوفا من الفقر، بل ينبغى له أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لايحتسب أكثر. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2] فإذا انسد عليه بابٌ كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغى له أن يضطرب قلبه لأجله.

---

(١) سورة هود الآية ٦.

(٢) سورة الطلاق الآيات ٢ - ٣.

وقال سفيان: اتق الله فما رأيت تقياً محتاجاً، أى لايترك التقى فاقداً لقوته بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه.

الثالث: أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء عن الناس ومافى الحرص والطمع من الذل، فإذا عرف هذا اتجهت همته إلى القناعة لأنه فى الحرص لايخلو من تعب، وفى الطمع لايخلو من ذل، أما القناعة ففيها الحرية والعز، مصداق ذلك قول الرسول ﷺ: «عز المؤمن استغناؤه عن الناس» [أخرجه الطبرانى] ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

الرابع: أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس ممن لادين لهم ولاعقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء، وإلى صفات الخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة والتابعين، ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هم أعز أصناف الخلق عند الله حتى يهون عليه بذلك الصبر على ضنك المعيشة والقناعة باليسير.

الخامس: أن يفهم مافى جمع المال من الخطر، ومافيه من خوف السرقة والنهب والضياع، ومافى خلو اليد من الأمن والفراغ وراحة البال. وأن ينظر إلى من دونه فى الدنيا لا إلى من فوقه. قال أبو هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولاتنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لاتزدروا نعمة الله عليكم» [رواه مسلم].

وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل للتمتع دهراً طويلاً، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه فى الشفاء [1].

٣ - القناعة والمال:

المال ضرورى للحياة والحاجة إليه لازمة لكل البشر، ومن عدم المال الذى هو مادة الحياة لم يستقم له دين ولادنيا، ولحقه الوهن فى نفسه ومروءته وأخلاقه. وأسباب كسب المال كثيرة متنوعة ترجع إلى أصول ثلاثة هى الزراعة، والتجارة والصناعة، وماعداها من الأعمال متفرع عنها وراجع إليها.

والمال ليس من الكمال الذى يطلب لذاته كالعلم وفضائل الأخلاق وإنما يطلبه من يطلبه لأمور:

● **منها منازعة الشهوات التى لاتنال إلا بوفر المال:** وليس لشهوات المرء حد تقف عنده ولاغاية تصل إليها، وإنما همه جمع المال وكثرته، لايحل فيه حلالاً ولايحرم حراما ولا يؤدى فيه حق الله أو الناس، ولهذا يكون حظه من الهموم ومنغصات الحياة أضعاف

(١) بتصرف كثير من إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٣ صـ ٣٥٢.

ماناله من لذائذ جمع المال وكنزه، والذى معه قوت يومه وقنع به فى سلامة من جميع ذلك، وهذه حال لايكف المرء عنها فى الغالب عقل زاجر ولاقانون وازع، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه» [رواه مسلم].

● ومنها أن يطلب المال ويلتمس كثرته لينفقه فى وجوه البر ويصطنع به المعروف عند أهله، وصاحب هذا أجدر بالحمد والثناء وأحرى بالتبجيل وأولى باحترام الناس، وبقدر مايبذل فى ذلك من الإفادة والتضحية يكون حظه من الخير وحسن العاقبة. ومن فعل هذا فقد أحسن استغلال المال ووضعه فى خير موضع، لأن المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للإخوان والأحباب، ومن فقده من الناس قلت الرغبة فيه واستهان به الناس حتى أقاربه الأدنين وخلانه الأوفياء، ولهذا قيل: (من استغنى كرم على أهله) ولعظم خطره سماه الله خيراً فى كثير من آياته قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٞ﴾ (٢).

وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ (٣).

وتواترت أقوال الحكماء والكتب السماوية فى مدحه وتحبيب الناس فى طلبه.

قال بعض الحكماء: «من أصلح ماله فقد صان الأكرمين: الدين والعرض».

وقد اعتبره القرآن الكريم زينة الحياة الدنيا وجعله فى منزلة البنين، قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾(٤).وعد العلماء الغنى خيراً من الصبر فقالوا غنى شاكر أفضل من فقير صابر.

● ومنها أن يطلب المال ليدخره لولده - فى المستقبل - مع بخله به على نفسه فى أمور دينه ودنياه. وهذا من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ لأنه مأخوذ بما جمع سيئ الظن بالله واثق ببقاء هذا المال على ولده، وهو عرض زائل وظل منتقل ودُولة بين الناس، وأسوأ مايعقبه هذا العمل أن يصرف الأبناء عن السعى فى طلب العلم والمعاش لاعتمادهم على ماسيصير إليهم من مال آبائهم، ولقد كان هذا سببا فى فساد أخلاق كثير من الشبان وانصرافهم إلى اللهو واللعب وتمادوا فى الخمول والكسل حتى أضاعوا كل ماورثوه من مال، وتبع هذا فقدان الشرف والصحة لأنهم عاطلون بالوراثة.

(١) سورة هود الآية ٨٤.
(٢) سورة العاديات الآية ٨.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٧٢.
(٤) سورة الكهف الآية ٤٦.

● ومنها أن يجمع المال حبا فيه من أجل جمعه وكنزه، وهذا أسوأ الناس حالاً، وأكثرهم عناء بما جمع من المال ومايستلزمه من التدبير والقيام عليه لحفظه من الضياع أو النقصان، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾[1]. ومن كانت غايته جمع المال وادخاره استولى عليه بعد الأمل، وهو سبب الشح الذى يصيب كثيراً من الناس فيصرفهم عن أداء الحقوق الواجبة لله ولأنفسهم وللناس، ويبعثهم على التورط فى المحرمات ومايستهلك دينهم وأعراضهم وأخلاقهم إذا ليس للحريص غاية يقف عندها ولانهاية يقنع بالوصول إليها.

وليس ينجى الإنسان من شرك استعباد المال وخطر استهوائه للأفئدة غير القناعة، فإنه لاغنى إلا بغنى النفس، ومن لزم القناعة زالت عنه صفة الفقر [2].

٤ - درجات القناعة:

ملاك القناعة الرضا والانصراف عما يثير فى النفس الحرص والجشع، وطلب الدنيا بأسباب لاتحل مباشرتها. وتتفاوت درجات القناعة فى الناس على الوجه التالى:

(أ) نوع من الناس يرضى بما تبلغ به دنياه، وينصرف عن كل ماسواه، وهذه الحال وإن كانت تستريح إليها نفوس كثير من الناس إلا إنهم أشبه بالعجزة وأليق بالكسالى وأمثالهم من المهملين من الناس الذين لايرون لهم حظاً من دنياهم يجب أن يحرصوا على طلبه ويجدوا فى إدراكه.

(ب) نوع آخر أفضل من سابقه يطلب مايكفيه من الدنيا لنفسه ولأهله ولأصحاب الحقوق عليه، ولايمدن عينه إلى ماوراء ذلك مما يزيد عناءه ويكثر آلامه، وهذه حال لابأس بها لمن أراد أن يبقى على نفسه وشرفه.

(جـ) ومنهم من يقنع بما سنح له قليلا كان أو كثيرا، وتقر عينه بما صار إليه من متاع الدنيا.وإن فاته شىء منها لم يجتهد فى طلبه، ولم يحزن لفوته، لعلمه أنه لاشىء من خير الدنيا وشرها إلا وهو بقدر، فما كان له منها أصابه على ضعفه، وماكان عليه منها لم يدفعه بقوته، وهذه حال كثير من العقلاء ممن فيهم أناة وصبر وحسن تصريف للأمور ونظر فى العواقب مع عدم استسلامهم لهوى النفس وخدعها الكاذبة، وهؤلاء يصيرون إلى راحة البال واطمئنان النفس وعدم المؤاخذة.

ومن لزم القناعة اتصف بكثير من صفات الكمال: كعزة النفس، والمروءة، والشرف، والسخاء، واستبقى لنفسه راحة البال والطمأنينة [3].

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

(٢) بتصرف من الخلق الكامل/ محمد جاد المولى.

(٣) المصدر السابق نفسه.

٥ - من قصص الصالحين فى القناعة:

دخل على بن أبى طالب ﷺ المسجد، وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد، أمسك على بغلتى [أى احرسها] ، فسرق الرجل لجامها، وترك البغلة وولى هاربا. فخرج على وفى يده درهمان مكافأة للرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلامه الدرهمين ليشترى بهما لجاماً. فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين. فقال على ﷺ :إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولايزداد على ماقدر له [١].

وقال الشعبى: حكى أن رجلاً صاد قنبرة فقالت له: ماذا تريد أن تصنع بى؟ قال: أذبحك وآكلك، قالت: والله ما أشفى من قرم [٢] ولا أشبع من جوع، ولكنى أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى.

أما الواحدة: فأعلمك بها وأنا فى يدك، وأما الثانية: فإذا صرت على الشجرة، وأما الثالثة: فإذا صرت على الجبل، قال: هات الأولى، قالت: لا تلهفن على مافاتك، فخلاها، فلما صارت على الشجرة قال: هات الثانية. قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت له: يا شقى لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين، زنة كل درة عشرين مثقالاً، قال فعض على شفتيه وتلهف وندم، ثم قال لها: هات الثالثة. قالت له: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة؟

ألم أقل لك: لاتلهفن على مافاتك ولاتصدقن بما لا يكون أنه يكون. أنا لحمى ودمى وريشى لا يكون مثقالاً واحداً، فكيف يكون فى حوصلتى درتان كل واحدة منهما تزن عشرين مثقالاً؟ ثم طارت فذهبت [٣].

***

(١) المستطرف / للأبشيهى.

(٢) قرم: أكل.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالى.

الفصل الحادى والعشرون

الكـــرم

١ - الكرم ومكارم الأخلاق:

الكـرم جامع لمكارم الأخـلاق: فكل خصلة من خصال الخير، وخلة مـن خلال البر تضاف إلى محاسن الطبائع والأعراق واقعة على اسم الكرم. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١].

• ألا تـرى أن التقى لايكون إلا كريما في جميع أحواله، حتى إنه ليبذل جوارحه فى كل عمل يقربه إلى ربه، ويجود بنفسـه مجاهداً فى سـبيل إرضاء خالقه (والجود بالنفس أسمى مراتب الجود).

• ألا تنظر إلى قولهم: (نسـب كريم) إذا كان يعطى الشرف والسؤدد وينم عن طيب المولد وكرم الهمة.

• وقولهم: (مجلس كريم) إذا أفاد العلم والمعرفة وبذل الآداب والحكمة.

• وقولهـم: (خلـق كريم) إذا وسـم صاحبه بالبر والسـماحة والبشـر والكرامة وتحلى بالصفات الكريمة.

• وقولهم: (فرس كريم) إذا أسرع فى العدو ونال السبق.

• وقد وصف الله تعالى بالكرم أنبياءه وملائكته فقال عز من قائل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[٢].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾[٣].

وقال عز وجل: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[٤].

• وهو اسم من أسماء الله - عز وجل - وصفة من صفاته، لأنه هو الذى انفرد بالملك والغنى وتوحـد بالعظمة والثناء (فهـو إذا عصى غفر، وإذا اطلع أمهل وسـتر، وإذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، لايُضيع من لجأ إليه، ولايسـلم من توكل عليه، يداه مبسـوطتان بالخيرات، وله خزائن الأرض والسماوات، لايُنازع فى قسمة رزقه، ولا يُراجع فى تدبير خلقه، فهو الكريم (بالإطلاق). وكل من تعلق بشىء من هذه الخلال وتخلق بطرف من هذه الخصال وصف بقدر مابلغ منها ونال[٥].

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.
(٢) سورة التكوير الآية ١٩.
(٣) سورة الدخان الآية ١٧.
(٤) سورة عبس الآية ١٦.
(٥) انظر الخلق الكامل/ محمد جاد المولى ج ٣ ص ٢٦١.

٢ - فضيلة السخاء ومنزلة الكرم:

السخاء خلق المسلم، والكرم شيمته، والمسلم لايكون شحيحاً ولابخيلاً، إذ البخل والشح خلقان ذميمان منشؤهما خبث النفس وظلمة القلب، والمسلم بإيمانه وعمله الصالح نفسه طاهرة وقلبه مشرق، ولتنمية خلق السخاء في نفسه يعكف قلبه متأملاً متدبراً على مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

فالخلق الكريم هو خلق السماحة والبشر والكرامة والتحلى بالصفات الطيبة، والتمسك بأهداب الشرف والنزاهة والنبل.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - ساد الناس فى الدنيا الأسخياء وفى الآخرة الأتقياء. والسخاء خلق الأنبياء وسبيل النجاة والغفران. يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام، وحسن الكلام» [رواه الطبرانى].

وعن الهلالى قال: أتى رسول الله ﷺ بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا، فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: يارسول الله، الرب واحد والدين واحد فمال هذا من بينهم؟ فقال ﷺ: «نزل علىَّ جبريل فقال: اقتل هؤلاء واترك هذا، فإن الله تعالى شكر له سخاءً فيه»[2].

وقال ﷺ: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه» [رواه ابن ماجه].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» [رواه البخارى].

وقال أيضاً: «إن الله جواد يحب الجود، ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفاسفها» [رواه الحاكم]

ولجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل، وأدوأ الدواء البخل.

وما أصدق قول الشاعر:

يسقط الطير حيث ينشر الحب ... وتُغشى منازل الكرماء

والإيثار وإنكار الذات من أعظم صفات الرجل الكريم، وهو أعلى درجات السخاء، والإيثار شعار النفوس الكبيرة التى تعمل جاهدة على خدمة الإنسانية عامة، وهو الذى يوثق الصلات بين أفراد المجتمع ويجعلهم إخواناً متحابين، وخلاناً متناصرين، بخلاف الأثرة، فإنها تجعل صاحبها منبوذاً مذموماً، يكرهه المجتمع ويمقته ويحقره، وقد أثنى الله تعالى على الصحابة الذين آثروا غيرهم بالخير والبر فقال:

(١) سورة المنافقون الآية ١٠.

(٢) إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٣٥٩.

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وقد روى فى سبب نزول هذه الآية: أنه نزل برسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً يقدمه له، فدخل عليه رجل من الأنصار. فذهب بالضيف إلى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وهو لايكفى إلا واحداً وليس عنده شىء غيره، فأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل، ولا يأكل. فأكل الضيف الطعام الذى قدمه إليه، فلما أصبح قال له الرسول ﷺ «لقد عجب الله من صنيعكما الليلة إلى ضيفكم» ونزل قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2].

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة لأنه إن كان كريماً أصون عرضه، وإن كان لئيماً أصون عنه عرضى.

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه فى العيادة [أى لم يحضروا وهو مريض] فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الديون. فقال: أخزى الله مالا يمنع منى الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادى : (من كان لقيس عنده مال، فهو منه فى حل. فكسرت عتبة بابه بالعشى لكثرة العواد) [3].

٣- من مظاهر السخاء والكرم:

(أ) أن يعطى الرجل العطاء فى غير منٍّ ولا أذى.

(ب) أن يفرح المعطى بالسائل الذى سأله، ويسر لعطائه.

(جـ) أن ينفق المنفق فى غير إسراف ولاتقتير.

(د) أن يعطى المكثر من كثيره، والمقل من قليله فى رضا نفس وانبساط وجه، وطيب قول[4] .

بمعنى أن العطاء الذى يكون من النفس ويجود به صاحبه وهو متهلل الوجه منشرح الصدر هو الكرم المحض الذى يقود إليه الطبع، أما من جاد متحاملاً على نفسه ورغماً عن إرادته فليس عمله بكرم، وإنما هو تكَرُّم؛ لأنه ينم عن التكلف وعدم الرضا، وتلك شنشنة من يحرص على المال ويحتجزه، وهو بذلك لا يكون كريماً على أية حال لأنه قلّما يجتمع الحرص والكرم.

---

(١) سورة الحشر الآية ٩.

(٢) سورة الحشر الآية ٩.

(٣) انظر الخلق الكامل/ محمد جاد المولى ودعوة الإسلام/ السيد سابق.

(٤) منهاج المسلم/ أبو بكر الجزائرى.

• وليس من أهل الكرم من يمنعون فروض الزكاة، وربما جادوا بجزيل الهبات لاستعذاب المدح والثناء، ومع هذا فمن ساعدته نفسه إلى بذل المال - تكلفا - فإنه يسمى فى المجتمع جواداً كريماً إلا إنه غير موفق للطاعة ولاموافق للشريعة، وكثيراً ماسقط الناس فى هذا الباب، لأن المدح لذيذ والثناء محبوب، وهو بحر قد غرق فيه الناس قديماً وحديثاً.

• وليس من السخاء ولا من الكرم أن يعمد الإنسان إلى إعطاء الخبيث من ماله، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ (١).

• ومما يتنافى مع السخاء والكرم: المن، ولذلك ينبغى لمصطنع المعروف أن يتجنب الامتنان وأن يتناسى ذكره، فإن ذلك من تمام الإحسان وكمال البر. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾ (٢).

٤ - دوافع الكرم:

والكرم له أسباب تدعو إليه ودوافع تبعث عليه:

• فمنه مايكون تديناً وتشرعاً: فإذا رأى الإنسان بأخيه حاجة، أو نزلت به نازلة أسرع إلى مساعدته، وإزاحة فاقته رغبة فى الأجر ورجاء فى المثوبة من الله تعالى. وهو أفضل الدوافع حالاً وأحسنها مالا؛ فإنه لايشوبه كدر ولامن ولا أذى.

• ومنه مايكون عن كثرة مال واتساع حال تدفعه إلى تقديم ماوفق إليه، ليجعله ذخراً للآخرة، ويستجلب به الشكر فى الدنيا مع الثقة بالكفاية والغنى عن الزيادة.

• ومنه مايكون رغبة فى الحمد والشكر، ومحبة فى الثناء وطيب الذكر، فيغدق بكرمه الضيفان وربما المحتاجين والمساكين، ليس من أجل الأجر والثواب، إنما من أجل أن يذهب صيته بين الناس، فيتكرم ويتوسع ليحمد ويمدح.

• ومنه مايكون حياء والحياء من الإيمان، فيجود بما يستطيع حياء من سائله، وإن قل ماله، ولم تساعده آماله.

• ومنه مايكون استجلاباً لمنفعة أو دفعاً لمضرة: فيضطر إلى اصطناع المعروف، وإن كان به غير معروف، رجاء بلوغ بغيته والوصول إلى أمنيته، فيأتيه تصنعاً لاتطبعاً.

• ومنه مايكون لحراسة مجد أو منصب أو رياسة فيبذل معروفه من أجل الحفاظ على المكانة وحرصاً منه على استدامتها، ولايخلو مثل هذا أن يكون طبيعة فى النفس.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٤.

مواطن الكرم

للكرم مجالات عديدة ومتنوعة مثل إكرام الجار، وكفالة اليتيم، وقرى الضيف، والتوسعة على الأهل والعيال، وصلة الرحم وذوى القربى، وقضاء حوائج المحتاجين، وإعطاء السائلين، وإطعام الطعام، فضلا عن السماحة والمعروف وصنائع الخير. ونوجز الكرم على أهمها فيما يلى:

● إكرام اليتيم:

اليتامى ضعفاء فقدوا راعيهم ونصيرهم، وأصبحوا عرضة للإهمال من جهة، ومطمعا للعدوان من جهة أخرى، وبين فكى الإهمال وطمع العدوان يقع اليتامى فريسة تستدر رحمة الرحماء، وتستجلب حنان ذوى الشفقة والرأفة، فهم بؤساء لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا.

من أجل ذلك أوصى الإسلام المسلمين برعاية اليتامى، وبذل الحنان والعطف لهم، والمبالغة فى إكرامهم، وحسن تربيتهم وتأديبهم، وأمر بكفالتهم، وإدارة أموالهم بأمانة تامة.

وحسب اليتامى فخراً أن يكون سيد المرسلين قد ولد يتيم الأب ثم نشأ يتيم الأبوين، ويخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ (١).

وقد ذاق الرسول طعم اليتم، وعرف فى نشأته مشاعره، وعرف مايقهر اليتيم ومايواسيه، وعرف مايفرحه ويسره وعرف ما يؤذيه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (٢).

ومن ثم حث الرسول الكريم صلوات الله عليه، على إكرام اليتيم فى أحاديث كثيرة منها:

- مارواه البخارى عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له ولغيره فى الجنة هكذا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى.

- مارواه ابن ماجة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله: «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه».

- مارواه ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من آوى يتيماً إلى طعامه وشرابه أوجب الله له الجنة البتة، إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر» (٣).

إن كفالة اليتامى من أخلاق المجتمع المسلم، إذ لا يجوز بحال من الأحوال فى مجتمع مسلم أن يترك يتيم مهملا، دون أن يجد من يكفله ويرعاه، فإن لم يجد من يكفله فالمجتمع الإسلامى الذى حوله كلهم آثمون إذا علموا به وأهملوه ولم يكفلوه (٤).

(١) سورة الضحى الآية ٦.

(٢) سورة الضحى الآية ٩.

(٣) انظر الحديث بتمامه فى مشكاة المصابيح (٤٩٧٥).

(٤) بتصرف كثير من الأخلاق الإسلامية/ عبد الفتاح حنبكة.

● إكرام الجار:

وقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الجار، وأوصى به خيراً، وجعل له على جاره حقوقا [1].

● قرى الضيف وإطعام الطعام:

قال الله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[2].

ولم تكن العرب تعرف الجود إلا فى قرى الضيف وإطعام الطعام، ولايعد سخياً من لم يكن فيه ذلك، حتى إن أحدهم ربما سافر فى طلب الضيف الميل والميلين.

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» [رواه البخارى].

ومن إكرام الضيف طيب الكلام وطلاقة الوجه، والخدمة بنفس راضية، لذا قال الشاعر:

وإنى لطلق الوجه للمبتغى القرى ... إن فنائى للقرى لرحيب
أضاحك ضيفى عند إنزال رحله ... فيخصب عندى والمحل جديد
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

● تفريج الكروب وقضاء الحوائج:

عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه» [رواه مسلم].

وروى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس، يفزع الناس إليهم فى حوائجهم. أولئك الآمنون من عذاب الله» [رواه الطبرانى].

● إعطاء السائلين:

قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[4].

---

(١) سبق الكلام على حقوق الجار بالتفصيل فى الفصل الخامس عشر.
(٢) سورة الإنسان الآيات ٨ – ٩.
(٣) سورة الذاريات الآية ١٩.
(٤) سورة الحديد الآية ٧.

وكان رسول الله ﷺ ينفق ما استطاع أن ينفق، وهو يستقل ما أنفق، وكان يعطى العطاء الجزل، فلا يستكثر ما أعطى، وماسئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه، وماسئل شيئا قط فقال لا.

أتاه رجل فسأله، فأعطاه غنما سدت مابين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: أسلموا ياقوم فإن محمد يعطى عطاء من لايخشى الفقر.

وحمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصيرة، ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وتعشى الناس عند سعيد بن العاص، فلما خرجوا بقى فتى من الشام قاعدا، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات، وخلف دينا وعيالا، وسأله أن يكتب له كتابا إلى أهل دمشق ليقوموا بإصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار، وقال له: لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم.

● السماحة والمعروف:

ومن ضروب الكرم السماحة والبشر وصنائع المعروف، وإدخال السرور على الناس.

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «من لقى أخاه المسلم بما يحب ليَسُرَّه بذلك سره الله عز وجل يوم القيامة» [رواه الطبرانى] .

وقال ﷺ «كل معروف صدقة» [رواه البخارى] .

وكان عبد الله بن عباس – رضى الله تعالى عنهما – من الأجواد أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، وقال له: يا ابن عباس، إن لى عندك يدا (معروفا) وقد احتجت إليها. فصعّد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال له: ما يدك؟

قال الرجل: رأيتك واقفا بفناء زمزم وغلامك يمنح لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بفضل كسائى حتى شربت.

فقال ابن عباس: أجل إنى لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه ماعندك؟

قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه، وما أراها تفى بحق يده [1] .

أمثلة السخاء العالية

١ – بلغ من كرمه ﷺ أنه كان يستحيى أن يرد سائله خالى اليدين معتذرا بالفاقة. جاءه رجل فسأله، فقال: ماعندى شيء ولكن ابتع [2] علىّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه.

فقال عمر بن الخطاب، يارسول الله، قد أعطيته من قبل، فما كلفك الله مالا تقدر عليه.

(١) المستطرف/ للأبشيهى.

(٢) ابتع: اشتر.

فكره النبى ذلك، فقال رجل من الأنصار يارسول الله أنفق، ولا تخشَ من ذى العرش إقلالا، فتبسم النبى ﷺ، وعرف البشر فى وجهه، وقال: بهذا أمرت [1].

أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثلها، فجاء عباس بن مرداس فقال:

أتجعل نهبى ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع [2]

وماكان حصن ولا حابس ... يفوقان جدى فى مجمع

وماكنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليوم لايرفع

فقال رسول الله : يا أبا بكر اقطع لسانه عنى، أعطه مائة من الإبل [3].

٢ – روى أن عائشة – رضى الله عنها – بعث إليها معاوية ﷺ بمال قدره مائة وثمانون ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت لجاريتها: هلمى إلى فطورى، فجاءتها بخبز وزيت وقالت لها: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه؟ فقالت لها: «لو كنت ذكرتينى لفعلت» [4].

٣ – روى أن عبد الله بن عامر اشترى من خالد بن عقبة بن أبى معيط داره التى فى سوق مكة بسبعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع عبد الله بكاء أهل خالد، فسأل عن ذلك فقيل له: يبكون لفقدهم دراهم، فقال لغلامه: ائتهم وأعلمهم أن الدار والدراهم جميعا لهم [5].

٤ – وكان ابن معمر من الأجواد قيل: إنه كان لرجل جارية يهواها، فاحتاج إلى بيعها، فاشتراها منه ابن معمر بمال كثير فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هنيئا لك المال الذى قد قبضته ... ولم يبق فى كفى غير التحسر

أبوء بحزن من فراقك موجع ... أناجى به صدراً طويل التفكر

فأجابها بقوله:

ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن ... يفرقنا شىء سوى الموت فاعذرى

عليك سلام لازيارة بيننا ... ولا وصل إلا إن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر: قد شئت، وقد وهبتك الجارية وثمنها فخذها وانصرف [6].

---

(١) الإحياء (٢/ ٣٢٧) .

(٢) النهب: المراد الغنيمة. العبيد: اسم فرسه.

(٣) الكشاف (١/ ٥٤٦) .

(٤) منهاج المسلم/ أبو بكر الجزائرى.

(٥) المستطرف للأبشيهى.

(٦) المصدر السابق.

٥ – اجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس – وهو عامل بالبصرة – فقالوا له:

لنـا جار صوام قوام يتمنـى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوج ابنته من ابن أخيه وهو فقـير، وليس عنده مايجهزها به، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقاً فأخرج ست (بدر) [1] ثم قال لهم: احملوا، فحملوها، فقال ابن عباس: ما أنصفناه، أعطيناه مايشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا بنا إليه نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه، ومابنا من الكبر ما يمنعنا من خدمة أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا [2] .

(١) بدر: مفردها بدرة كيس فيه مقدار من المال يقدم فى المناسبات.

(٢) الإحياء (٣/ ٣٦٤) .

خاتمة: نسأل الله حسنها

وبعد: فقد كان الفراغ من كتابة هذا السفر (مكارم الأخلاق فى ضوء القرآن والسنة) ليلة اطمأن فيها قلبى. ولعل القارئ الكريم يجد فى هذه الدراسة المتواضعة الفوائد المهمة والقواعد الراسخة لبناء علم الأخلاق الإسلامى، الذى لم يتأثر بفكر غربى ولا بمذهب فلسفى، وإنما هو هدى القرآن الكريم، وسنة الرسول العظيم.

وفى نهاية المطاف:

فإننى أسأل الله أن ينفع به عباده المؤمنين، ويجعله خالصا لوجهه الكريم، ويكتب له القبول فى الأرض، ويضاعف به الأجر والثواب لى ولزوجتى التى هيأت لى الجو الملائم لكتابته من بدايته، وكانت خير حاث لى على إتمامه حتى نهايته.

واعترافا بالجميل، وإقرارا للحق، فإنه لولا جهدها وكدها وتعبها من البداية إلى النهاية، لم يكن لهذا الكتاب أن يرى النور.

والواقع أن العمل فى ذلك البحث الأخلاقى، قد استغرق وقتا طويلا، وعملا متواصلا، وكانت الفائدة صعبة المنال، لولا الكثير من الصبر والمصابرة وسعة الصدر، وذلك من أجل الحصول على المعلومة المفيدة دون إطناب ممل، أو اختصار مخل.

وبذلك قدر لهذا الكتاب أن يرى النور، وأن يخرج إلى حيز الوجود، وأن يولد مولودا جديدا من الكتب الرائدة فى عالم الفكر والأخلاق، وذلك بفضل الله وحوله وتوفيقه، ثم بجهد السيدة حرمى.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

وهو نعم المولى ونعم النصير،

أحمد على خضر